روچيه جارودي

الإرهاب الغربى

الجزء الأول

تعريب :

د. داليا الطوخي

د. ناهد عبد الحميد

د. سامي مندور

مكتبة الشروق الدولية

الإرهـاب الغــربى

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م



شارع الفتح - أبراج عثمان أمام المريلاند - روكسى القاهرة

تليفون وفاكس: ٤٥٤٤٤٦٧ - ٢٥٦٥٩٣٩ - تليفون ٤٥٣٦٢٤٨

Email: shoroukintl@hotmail.com

shoroukintl@yahoo.com

روچيـه جـارودى

الإرهاب الغـربى

الجزء الأول

ترجمة: د. داليـا الطـوخـى
د. ناهد عبد الحميد
د. سـامـى مـنـدور



قام بترجمة هذا الجزء من اللغة الفرنسية:

د. سامى مندور - التمهيد والمقدمة والفصل الأول

د. داليا الطوخى - الفصل الثانى

د. ناهد عبد الحميد - الفصل الثالث

تقديـــم

الكتاب الذى بين يدى القارئ هو آخر ماكتبه روچيه جارودى، وقد يكون من آخر مايكتبه . . فهو فى العقد العاشر من عمره . .

وعندما نقرأ الكتاب، نحس من كهل جاوز التسعين ثورة الشباب . .

ـ الثورة على النظام الذى خلق الفجوة المتزايدة بين الذين يملكون والذين لايملكون . .

ـ الثورة على الغرب الذى نهب ثروات العالم لمدة خمسة قرون . . والذى استباح ذلك النهب على أسس متعددة، وقد تكون متناقضة: أسطورة الشعب المختار . . اليهود، ثم الكنيسة الكاثوليكية فى روما . . ثم البروتستانت فى بريطانيا والولايات المتحدة . . رأسمالية استعمارية . . ليبرالية . . البقاء فيها للأقوى . . حيث إن الإنسان ذئب لأخيه الإنسان . .

ـ الثورة على الخنوع للظلم والسلبية . . .

ـ الثورة على فصل العمل عن الإيمان . . .

ـ وأخيرا الثورة على المؤسسات الرسمية للأديان الكتابية الثلاثة . . .

وُلد جارودى فى بيئة إلحادية . . اقتنع بالفكر الماركسى . . ثم عرف المسيح فهام فى حبه . . ثم عرف محمداً ﷺ فأكبر فيه اعترافه برسالة المسيح . . . ورسالات الأنبياء الذين سبقوه . . . وكتبهم . . ، ورأى أنه عولم الدين لصالح البشرية كلها، ومكنها بذلك من وضع أسس للسلام والازدهار الإنسانى، آتت أكلها حينما حكم المسلمون الأندلس بضعة قرون، عاش فيها اليهود والمسيحيون والمسلمون جميعا وأبدعوا فى كل المجالات، فاحترم فيه إنشاءه دولة العدل والعلم والعمل والإنسانية.

اعتنق جارودى الماركسية ثم المسيحية ثم الإسلام، ولم يتنكر لأى منها، وهو فى فهمه للثلاثة مخالف لفهم التيار الرئيسى فى كل منها، واحترم حكمة الهند والصين، وحضارة الهنود الحمر فى أمريكا.

يرى جارودى أن المؤسسات الرسمية للأديان الكتابية الثلاثة لم تقم بعملها كما يجب . . ودليله على ذلك ما نعاصره الآن فى بداية القرن الواحد والعشرين ، وبعد أن نال القرن العشرون جائزة أكثر القرون دموية فى تاريخ البشرية ، وبعد خمسة قرون من نهب الغرب للشرق واستعباده واستئصاله لما أمكن استئصاله .

- يعيب على المؤسسة اليهودية أسطورة الشعب المختار ، بما جلبته من عنصرية وإنكار الآخر ، وأسطورة أرض الميعاد التى سببت - ومازال - مأساة الشرق الأوسط على مدى نصف قرن . .

ويعيب على المؤسسة المسيحية انقيادها لبولس الرسول وليس لعيسى ﷺ ، وإنها بمحاولتها تشبيه عيسى بداوود - لدرجة أنها ابتدعت لعيسى نسبًا من يوسف النجار إلى داوود - وقعت فى أسر العهد القديم بأساطيره . . ويرى فى مجمع نيقية ميلاد لاهوت السيطرة المسيحية اليهودية الرومانية .

ويعيب على المؤسسة الإسلامية قراءتها الجامدة للنصوص - وبكلماته : قراءة النصوص بعيون ميتة - وتمسكها بالقشور دون الجوهر .

ويعيب على المؤسستين الأخيرتين فصل العمل عن الإيمان ، وعلى المؤسسات الثلاث تكريس الظلم والاستبداد فى العالم ، واعتقاد كلّ منهما أنها تحتكر الحقيقة المطلقة .

يدعو جارودى إلى العمل الخلاق للخروج من كل هذا :

اعمل حتى تساعد الله فيك . . اعمل حتى تحقق الله فيك . .

عادل المعلم

يناير ٢٠٠٤م

تمهيد

كتبت هذا الكتاب بالكامل قبل الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، ومنذ ذلك الحين، لم يكن لى أن أغيّر فيه كلمة واحدة لأنه يتيح فهم مدلول الحدث فى إطار الثلاثين قرنًا من الزمان التى كونت الغرب، بتناقضاته الداخلية وتقدمه الهش الذى يعكس -بدلالته المنذرة رغم رخويتها- انقلابًا ممكنًا فى مساره المتصاعد.

إن مركز التجارة العالمى والبنتاجون يعتبران أهدافًا رمزية لخمسين عامًا من الهيمنة الأمريكية.

وقد أراد الأمريكيون منذ نهاية البربرية القديمة بهزيمة هتلر، أن يقدموا دليلاً واضحًا على ميلاد قوة تدمير جديدة لردع أى منافس محتمل ينازعهم هذه الهيمنة.

ولذلك أعطى الرئيس ترومان أوامره فى السادس من أغسطس عام ١٩٤٥م بإلقاء قنبلة ذرية بقوة ٢٥٠٠ طن من المتفجرات التقليدية على هيروشيما، مما أدى لمقتل ثمانين ألف شخص، بالإضافة إلى مائة ألف ضحية آخرين من مصابين بالإشعاع إلى معرضين للموت بالسرطان أو اللوكيميا (سرطان الدم)؛ لأن هذه القنبلة كانت تنتزع اللحم على بُعد أربعة كيلو مترات من سقوطها.

ثم ألقيت قنبلة أخرى من نفس النوع فى التاسع من أغسطس عام ١٩٤٥م على مدينة ناجازاكى، مما رفع عدد الضحايا بعد قنبلة هيروشيما إلى مائتى ألف. ولم تكن هذه الجرائم لتقع دون أن تثير استياءً عالميًا.

مهدت هيروشيما إذن لخمسين عامًا من الهيمنة الأمريكية الشديدة ، من

جواتيمالا إلى ڤيتنام، ومن نيكاراجوا إلى العراق، ومن يوجوسلافيا إلى أفغانستان، بشتى أنواع القصف «الإنسانى» والتدخلات «الديموقراطية» فى شئون الشعوب الذين تختارهم واشنطن.

وقد أعلن البيت الأبيض جهارًا عشية الهجوم على مركز التجارة العالمى والپنتاجون رؤيته: إذ الأمر يتعلق بمرحلة جديدة من حرب أفغانستان التى تكوّنت فيها شبكة إرهابية من قراصنة الجو من أفغان ومسلمين من كل البلدان، بما فيها المهاجرون فى أوروپا وأمريكا، وقد قرر هؤلاء جميعًا شن «حرب مقدسة» على أراضى الولايات المتحدة. ولذلك استولوا على أربع طائرات وحوّلوا مسارها واستخدموها كصواريخ قرصنة قادرة على تدمير مركز التجارة العالمى فى نيويورك والپنتاجون فى واشنطن.

وتبرر هذه الرؤية للولايات المتحدة المطاردة المستمرة لـ«ابن لادن» وتكثيف القصف الجوى على أفغانستان. كما تسمح لها كذلك بتكريس حقدها على الإسلام بشكل عام. بخلطه خلطًا متعمدًا مع «الحركات الإسلامية».

وبذلك وجد الأمريكيون هدفًا جديدًا واعتبروا بدورهم الإسلام «إمبراطورية الشر» بعد انهيار الاتحاد السوڤييتى الذى اعتبره رونالد ريجان سابقًا «إمبراطورية الشر». ويعطى انتشار الإسلام فى العالم أجمع - مثل الشيوعية السابقة- ذريعة التدخل فى كل مكان فى العالم، ولا يبرر ذلك التدخل فى الشرق الأوسط فحسب، ولكن فى آسيا وأفريقيا كذلك، كما فعلته الولايات المتحدة فى إندونيسيا عندما موّلت انقلاب سوهارتو الذى جاء على أنقاض ٨٠٠٠٠٠ ضحية.

ولكن ذريعة «ابن لادن» هذه تعتبر واهية تمامًا - حتى من الناحية التقنية - كما ظهر من خلال نقاش متعمق دار بين عدد كبير من الطيارين المدنيين والعسكريين الأمريكيين، وأوضح الآتى:

١- أن عملية بهذا الحجم وبهذه الدقة لا يمكن أن يقوم بها إلا طيارون

محترفون مؤهلون تأهيلاً عاليًا، ليصيبوا بدقة هدفًا يبدو على ارتفاع طائرات الركاب الضخمة كعامود رفيع!

٢- أن أى عملية ناجحة كهذه، تقتضى معرفة تامة باللوائح والمحظورات والشفرات السرية فى سماء يُراقب الأمن العسكرى والمخابرات المركزية الأمريكية كل متر مربع فيها.

٣- لم تتدخل الطائرات العسكرية -التى فى حالة تأهب دائم للإقلاع المباشر للقضاء على أى طائرة مشبوهة- بأى شكل.

٤- تتمتع الولايات المتحدة الأمريكية فى مجال الأبحاث التى قام بها الأمريكيون لمكافحة خطف الطائرات، بنظام يتيح شل حركة الطيران فى الطائرة المستهدفة والتحكم فيها من بُعد بغرض تدميرها أو إجبارها على الهبوط.

ليس هناك حاجة إذن لأى طيار أو قرصان جو.

وكما يقول التقرير، فقد كان كل شيء مؤقتًا ومخططًا عن طريق التحكم من بعد.

والخلاصة التى وصل إليها الطيارون واضحة تمامًا: فكل هذا يدل على وجود مؤامرة على مستوى عال. نحن أمام قضية خيانة عظمى، أمام مؤامرة.

وليست هذه هى المرة الأولى التى تنظم المخابرات المركزية الأمريكية وعسكريون فى مناصب عليا ومسئولون سياسيون، مثل هذه الإثارة لإجبار الشعب على القبول بفكرة ضرورة القيام بحرب إبادة.

ففى كوبا على سبيل المثال ، وبعد فشل الإنزال فى خليج الخنازير، اقترحت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA وقادة الجيش -الذين اعتبروا سياسة كنيدى تجاه كوبا مائعة- على الرئيس تنظيم عمليات إثارة فى جوانتامو: مثل المظاهرات فى الشوارع وعمليات التخريب، وإغراق سفينة حربية أمريكية (وهى نفس الذريعة التى تذرعت بها لتعلن الحرب على إسبانيا عام ١٨٩٨م).

إذن ليست هـذه هى المرة الأولى، ولكن العمليـة احتوت هذه المـرة عناصر جديدة: فـلكى تحدث مفـاجأة كـبيـرة، كان لا بد أن يتـحرك المتـآمرون «من الداخل» وأن تُخْفَى المـؤامرة الداخلية وتنسب إلى «إرهابيـين مسلمـين» لجذب الرأى العام. ويعـتبر هذا الجـزء من المهمـة سهلاً، نظرًا لأن وكـالة المخابرات المركزية الأمـريكية أقامت صـلات وثيقة مع جـماعات مـتطرفة متـأسلمة منذ الثـمـانينيـات، لتنظيم «الحـرب المقـدسـة» ضـد إمبـراطورية الشـر (الاتحـاد السوڤييتى).

وعلى هذا كانت الولايات المتحدة تساند معركة «بن لادن» ضد «عدو الله»: الاتحاد السـوڤييتى، وكانت قـواته حُلفاءها. وكذلك قامت بعـقد الروابط مع الطالبان.

ثم قام المتآمرون الأمريكيون بعمل المونـتاج: حيث تقوم مناورة مذهلة لتؤكد الخطر الذى تواجهه الولايات المتحـدة وضرورة بذل كل ما فى الوسع فى حرب عالمية، هجومية شديدة، كتلك التى خاضتها ضد الاتحاد السوڤييتى سابقًا.

ولهذا فقد أقنعت الـطالبان، تحت نفس الحجج الدينية التى استخـدمتها فى مواجهة الاتحاد السوڤييتى، بالدخول فى حرب ضـد عدو آخر لله: الولايات المتحدة.

وكان المنتحرون على أهبة الاستعداد لبذل حياتهم ليوجهوا ضربة قاسية ضد هذا العدو الجديد.

وكانت هى المعركة نفسها بالنسبة لهم .

ولم يكن ليطلب من هؤلاء المنتحـرين أن «يقودوا الطائرات»؛ لأن ذلك كان غير مجدى، خاصة أن هذه الطائرات كان يتم توجيهها عن بُعد.

ويقول تقرير الطيارين:

«وبمجرد أن دخل الإسلامـيون المختارون الطائرة، تمت الحيلة حيث اعـتقدوا

فى عمليتهم دون أن يشكوا فى أنهم يقومون بدور الممثلين الصامتين فى عملية أخرى. هى عملية المتآمرين الذين كان همهم الرئيسى أن يُعثر على آثار الإسلاميين. وقد أضافت شرطة الـ إف.بى. آى F.B.I أدلة أخرى فى الأنقاض، منها كتب تعليم الطيران باللغة العربية، ونسخ مختلفة من القرآن الكريم، وكذلك جواز سفر، وعلى وسائل الإعلام أن تقوم بالباقى.

ناسب الظرف الاقتصادى والعسكرى والسياسى تماما القيام بانقلاب من هذا النوع.

فعمليات تسريح العمال والموظفين تتكاثر ومقاييس النشاط الاقتصادى فى أضعف مستوى لها منذ عام ١٩٦٢م.

هذا إلى جانب خفض البنك الفيدرالى لقيمة الفائدة بشكل مستمر، لتسع مرات منذ بداية عام ٢٠٠٠م لتشجيع الاستثمار، كما أن خفض الضرائب لتشجيع الاستهلاك لم يحد من هذا التراجع. بالإضافة إلى أن احتياطى البنوك يعتبر فى أدنى مستوياته منذ ثلاثة عشر عامًا.

وتزايد قلق القوى الحقيقية العامة فى الولايات المتحدة من جماعات الضغط الصناعية والمالية ضد هذه السياسة: حيث كان البنوك ورجال البترول وأصحاب مصانع الطائرات، وصناعة التسليح بشكل عام، واللوبى العسكرى بوجه خاص، يريدون توجهًا جديدًا فى السياسة الأمريكية.

ولم ينس «اللوبى العسكرى الصناعى» أن الحرب الكورية - بعد الازدهار المالى الناتج عن الحرب العالمية الثانية- قد أحدثت «ازدهارًا اقتصاديًا» جنّب الولايات المتحدة أول أزمة لها بعد الحرب.

إن حربًا واحدة من هذا النوع من الضخامة، هى الكفيلة إذن بتخطى الصعاب الحالية.

وكان أن ألزم المتآمرون الرئيس بوش الابن باتخاذ السياسة الهجومية التى كان عليها الرئيس السابق رونالد ريجان.

وقد نجحوا فى ذلك إلى حد كبير، وغير بوش لغته، وأصدر أنذارا لكل من العراق وإيران وكوريا الشمالية.

تحدث فى شهر أكتوبر عام ٢٠٠١م عن «حرب صليبية حقيقية» مستوحيًا السيناريو الذى قدمه «هنتنجتون - Huntington» فى كتابه: «صدام الحضارات» الذى يرى فيه أن التحالف الكونفوشيوسى الإسلامى، والذى يعنى فى لغة الكاتب إيران والصين كأعداء رئيسيين، يهدد الحضارة الغربية اليهودية المسيحية.

وكذلك قابلت الولايات المتحدة بشكل متواصل مقاومة كبيرة، وحلفاء قليلين فى مشروع العولمة الذى تقوده، تلك العولمة التى تعنى استعمارًا ممتدًا على المستوى العالمى ولصالح مستعمر واحد. وهذا ما جعل صحفيّا إنجليزيًا يُدْعى «والابى- Wallaby» لأن يقول:

«إن نهاية الاستعمار شكلت فراغًا لايمكن أن تملأه إلا إحدى الإمبراطوريات».

وقد عبّرت حركة مناهضة العولمة عن نفسها بقوة فى مظاهرات «سياتل - Seattle» -على سبيل المثال- التى نجح قائدها الفلاح الفرنسى «جوزيه بوڤيه- José Bové» فى ضم مزارعين أمريكيين، لا سيما أن ذلك يعد مدهشًا؛ لأن مصالح الطرفين ليست بعيدة عن التناقضات.

وفى جنوة، رأى المؤيدون القليلون لمنظمة التجارة العالمية (WTO) أن يعقدوا جلسة على إحدى السفن ليهربوا من غضب الناس، وتقرر أن يعقد مؤتمر«ديڤوس» القادم فى نيويورك!

ولم تقدم سياسية بوش الابن أى حل أمام هذه الصعوبات، بعد أن تحدث خلال حملته الانتخابية وقراراته الأولى عن «الدرع المضاد للصواريخ» وعن «التخلى» بعض الشىء عن الشرق الأوسط.

وقد ظهرت عُزْلة الولايات المتحدة بشكل كبير فى مؤتمر دربان بجنوب أفريقيا حيث وضعت موضع اتهام شديد مثلها مثل إسرائيل، حيث ذكر المؤتمر أن إسرائيل دولة عنصرية، كما أكدت ذلك الجمعية العامة للأمم المتحدة من قبل، وقد أُلغى هذا القرار بعد ضغوط من الولايات المتحدة.

وعلاوة على ذلك، فـقد أوضحت الوفود الأفـريقية أن القـانون الدولى أقرّ منذ قـضـية القـادة النازيين فى «نـورمبـرج- Nuremberg» أن «الجرائـم ضد الإنسانيـة» لا تسقط بالتقـادم، ولهذا فإن الأفارقـة الذين كانوا ضحـية لأبشع جريمة ضد الإنسانية «وهى الرق»، لهم حق التعويض من جانب الذين مارسوا ذلك ضدهم، وهى دول أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية.

***

الخلاصة

قـدم بوش هذه السيـاسـة أولا كـ «حرب صليـبـية» يجب أن تجـمع خلف الولايات المتحدة كل حكّام الدول الأوروبية الاستعمارية القديمة.

ولكن هذه «الحملة الصليبية» تعوق الـتوسع إلى البلاد الإسلامية التى تمتلك احتياطات نفطية ضخمة تحتاجها الولايات المتحدة.

ولهذا غيّر بوش مفردات كلماته وجعل مشروع التوسع الأمريكى يأخذ اسم «الحرب ضد الإرهاب»، لكى تعتـبر قمع الحكومات للمعارضة الشعـبية، نوعًا من الحرب ضد الإرهاب.

بالإضافة إلى أن ذلك يتـيح وصف الحكومات التى ترفض الدخول فى هذا التحالف بـ «الضلوع فى الإرهاب».

وقد أعطى تونى بلير وهو «أول الخاضعين» إشارة البدء بسن القوانين القمعية «المضادة للإرهاب». ويقـول بلير المضـاد للإرهاب: إننا نستطيع أن نعـتقل أى أجنبى بناء على طلب بسـيط من أى وزير، ولن يكون من حق هذا الأجنبى أن يعرف عناصر الاتهام الموجه إليه. وتبيح المادة ١٠٩ من القانون لكل الوزراء أن يتجاوزوا القوانين دون الرجوع إلى البرلمان(*).

(*) أعلن بلير فى الأسبوع الأول من عـام ٢٠٠٤م، بعد زيارة قصيرة للاستجمـام فى مصر، أعلن فور مغادرته «جرثومة التطرف الإسلامى تهدد السلام العالمى».

وبذلك تم محو ثمانمائة عام من تراث المقاومة ضد الاستبداد الناجم عن الاعتداء على القوانين التى تكفل الحرية الفردية، خلال بعض ساعات.

واقتفى التابعون الأوروبيون الآخرون أثر هذا النموذج، مكملين بذلك انتهاك واستلاب السيادة التى أقرتها اتفاقية ماسترخت التى جعلت العدالة فى أوروبا متمركزة فى «المحكمة الأوروبية» بعد تمركز الشرطة فى يد البوليس الأوروبى.

وقد وضع مؤتمر «فقهاء القانون الأوروبيون» بداية عام ٢٠٠٢م المنعقد فى نورمبرج الخطوط العريضة لهذا المشروع، الذى يقضى بأن أى مواطن أوروبى يمكن أن يُوقف أو يُحاكم بمقتضى قوانين مختلفة عن قوانين بلده.

ومرة ثانية، بدا واضحًا أن أوروبا- وفقًا لتعبير معاهدة ماسترخت نفسها- لا يمكن أن تكون إلا الأساس الأوروبى للحلف الأطلسى، ذلك أن المادة ٥ من قانون إنشاء معاهدة حلف شمال الأطلسى (NATO) تستلب استقلالنا العسكرى، وتجعلنا مرتبطين بكل الاعتداءات الأمريكية: من الخليج إلى يوجوسلافيا ومن الصومال إلى أفغانستان.

أما أوامر بوش التى تفرض التحالف المسمى «الحرب ضد الإرهاب» فتؤدى إلى تبعية متزايدة للسياسة الأمريكية.

وأطلق بوش بعد ذلك تهديدات ضد الدول التى رفضت الانضواء تحت سياسة الهيمنة العالمية مثل العراق وإيران وكوريا الشمالية باعتبارها دولاً «إرهابية».

ثم اجتاز خطوة أخرى بعد ذلك بأشهر فى هذه الدعاية المختلة التى تهدد عديداً من هذه الدول بالقصف الذرى.

ولكى نكافح هذه البربرية الجديدة، يجدر أن نأخذ فى اعتبارنا «العدو الرئيسى»؛ لأننا نجد أنفسنا من نواح عدة فى وضع مشابه لوضع الاحتلال

الألماني لفرنسا، الذى واجهت فيه الفروق بين «اليمين» و«اليسار» - والتى كان لها مدلول عميق فى القرنين التاسع عشر والعشرين - شرخًا جديدًا: التعاون لمقاومة الاحتلال، أم مقاومة التعاون، فيبقى الاحتلال؟.

ومثل الأمس تمامًا، ترتبط معارك المقاومة ارتباطًا وثيقًا بالصراع ضد تبعية اقتصادنا وسياستنا لإرادة المحتل، ولا يمكن لكفاح كهذا ضد البطالة ومظاهر عدم المساواة، والمركزية والإفلاسات، أن يؤتى ثماره إلا إذا توازى ذلك مع الكفاح ضد المؤسسات والقوى الاقتصادية الأمريكية.

وليست أوروپا إلا أداة لهذه الهيمنة الأمريكية، فهى اليوم أوروپا الأمريكية.

يليق بنا إذن أن نقطع كل علاقة مع المؤسسات الدولية التى تعتبر أدوات للهيمنة الأمريكية. وهذه الأدوات هى: منظمة حلف شمال الأطلسى، صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى(*)، والمحكمة الأوروپية.. إلخ.

إننا نرفض العزلة، مع التحرر من كل ما يمنعنا من إقامة علاقات خصبة ومستقلة مع دول العالم الثالث، المهددة اليوم مثلنا بعولمة «إمپريالية» تقدم شكلاً جديدًا من أشكال الاستعمار الذى يخدم بلدًا أصليًا واحدًا، وبدلاً من تلك العولمة الأمريكية، نحن ندعو إلى اشتراك مختلف الحضارات والثقافات على أسس من المساواة.

وهكذا يتضح مدلول الحادى عشر من سبتمبر: فهو ليس تعبيرًا عن المواجهة بين الإسلام والمسيحية ولا بين الشرق والغرب. ولكن هذا ما يريد المتآمرون الأمريكيون أن يقودوا القرن الواحد والعشرين إليه وفقا لسيناريو هنتنجتون.

وعلى الغرب الرأسمالى الاستعمارى الذى يعانى من تفجر تناقضات داخلية أن يبحث عن مناهج يمكن أن تضمن له البقاء.

(*) عقب الأزمة المالية التى عصفت بجنوب شرق آسيا أواخر القرن الماضى، رفض رئيس الوزراء الماليزى خطة الصندوق الدولى رفضًا جازمًا، وكانت ماليزيا أول دولة تخرج من الأزمة.

مقدمة

مرت حياتى بانشقاقات لا آسف على أى منها؛ لأنها ليست إنكارًا لما سبق ولكنها تجاوز لحد ما.

ولقد نشأت فى أسرتى على إلحاد جردنى من كل المفاهيم التى تخص الله، حجبنى من كل تدين قَبَلى يدعى الاحتفاظ لنفسه باحتكار المطلق ويفرض علينا أساطيره وشعائره وعقائده، كما لو كانت متسامية مثل اسطورة شعب الله المختار.

وتلك مفاهيم العقل المنغلق الذى لا يعى بدهياته وحدوده. وعندما أدركت أن هذه الحدود كانت هى حدود الثقافة والفلسفة التى تعلمتها فى المدرسة، أحسست بالحاجة إلى الهروب من السجن العِلْموى[1]. وعندما قابلت مصادفة كييركجارد البروتستانتى، أدركت أن هناك - بعيدًا عن منطقنا الضعيف وأخلاقنا التافهة - تضحيات مشابهة لتضحية إبراهيم - عليه السلام - والتى تبدو فى ظاهرها غير عاقلة؛ لأنها انقطعت عن كل المعايير القبلية.

وبذلك استطعت أن أسد ثغرة أخرى، ربما تكون أكثر الثغرات انفتاحًا للأمل فى تاريخ البشر والآلهة: وهى المسيح وبوجوده، لم فلم يعد الانشقاق، والتفوق على الذات ثم الارتقاء، مُلَوَّثًا بنظرة خارجية محددة ومحدودة.

لأن من كان قبله كانوا يدعون إلى الله خارج أنفسنا (أى فوقنا، كما كان

---

(١) العلموية: مذهب يقرر الاكتفاء بالعلم من حيث قدرته على بحث المسائل الدائرة على المعرفة البشرية - المترجم.

يعلمه لنا علم الكونيات البدائى عن الأرض المستوية التى نصعد منها إلى السماء كما ننزل إلى الجحيم).

وهذا الإله هو ملك له قدرة خارقة، تقرر من أعلى مصير البشر فى الأرض وإمبراطورياتهم، ويشكله على طريقة الصانع الذى يصنع آنية أو تمثالاً من الصلصال.

لقد قاطع عيسى - عليه السلام - هذا «القانون» المسمى بالإلهى، الذى انغلق حتى ذلك الوقت على الإنسانية المسكينة، التى حكم عليها فقط أن تقبل القرارات التى تأتى «من أعلى»، فاخترق كل النواهى والأوامر وأعطى نموذج المسئولية والحب معًا، فاختار أن يعطى نفسه أولاً لأشد الناس فقرًا ثم للمعوزين لا لكى «يساعدهم»، وليس بأبوية رجل غنى يميل إلى البؤس، ولكن بأن يعيش ويموت معهم ومثلهم.

وكان هذا الموت أوضح دليل على قيامتنا: كرفض لحياة لا هدف لها إلا إرضاء رغباتنا الحقيرة وطموحاتنا التافهة، بالخضوع أولاً لإرادة «الكبار»، الذين يوزعون دائمًا الثروة والأمجاد على الرعايا الطيِّعين.

لقد أصبحنا مع يسوع المحرِّر بشرًا قادرين على تحمل المسئولية، وعلى الحب. وما سميناه حتى ذلك الوقت إلهًا لم يعد كائنًا أو معلمًا، ولكنه دعوة، وهذه الدعوة إلى العمل الخلاق والمحرِّر تعتبر تدفقًا خالصًا لتعبئة من أجل حياة، وامتلاء بالحياة، تتجاوز كل الأهداف التى كنا نعتقد أنها وحدها الممكنة، والإيمان هو إجابة هذه الدعوة بلا تحفظ، والقوة التى مُنِحْنَا إياها لنشارك فى هذا الارتقاء.

وليس هذا أمرًا يعطيه سيد لأحد العبيد، ولكنه نموذج مطرد يعطيه أخ لأخيه لكى يواصل وينمى عمل الأب.

ولم يبق لنا إلا أن نختار الطريق. وهو بالنسبة لى طريق «الكفاح». ولأن

عيسى كان فى القلب، فـقد أصبحت «ماركسيًا»، أعتـبر أن «ماركس» قد أعد لقرن كـامل قوانين التطور الـتى قد تتيح لـلإنسان، ليس الوصول إلـى «نهاية التاريخ»، ولكن الخروج من ما قـبل التاريخ، حيث كان شقاء وتبعـية الأكثرية شرطًا لثراء وقوة البعض.

ولم آسف على هذا الاختـيار، لأنى ظللت أعتقـد أنه بدون مناهج التحليل التى استـخدمهـا ماركس فى عصـره، لن يكون ممكنًا أن نفهم تصـدع العالم: فعندما اتحد الاستـعمار منذ الحرب الأخيرة داخل تحالف المستـعمرين القدامى والجدد، تزايدت الفجوة بين من يملكون ومن لا يملكون.

ولكى اختار مرة ثانية معسكرى ضـد أيديولوچية المهيمنين، اعتنقت الإسلام الذى كـان له تأثير ثقـافى واضح، لا لكى أشاطر المسـلمين حنينهم للمـاضى وتقليدهم الغرب، ولكن لـكى أنحاز إلى نموذج العقائد الداعيـة إلى التحرير، وقد ولدت هذه العقائد فى أمريكا اللاتينية وأفـريقيا وآسيا، حيث تموت الكثرة الغالبة من البـؤس على إيقاع هيروشيمـا كل ثلاثة أيام. ذلك أن نموذج التنمية الغربية الذى تلهث وراءه دول العالم الثالـث، يساعد دائمًا على ازدياد تخلفهم المرتبط بتبعيتهم.

وليست وحـدة العالم هى الوحدة الإمـپريالية الناجمـة عن عولمة منافقـة، ولكنها الوحدة المتـناسقة لكل الشـعوب وكل المجتمعـات. وتلك الوحدة هى البـنيان الذى يمكن أن يكون وحـده بنيان الله، ويصـبح هدفنا الأول كبـشر ذوى عـقيـدة أن نكون نحن البناة.

إن الإفلاس المؤقت لأمل المبعدين الكبير، وهو الاشـتراكية، كان بسبب من خانوا فكر ماركس، فلم يفهموا أن أى ثورة حقيـقية تحتاج إلى ما فوق الوجود المادى، أكثر من حاجتها إلى الجبرية تلك الـتى يسميها المتدروشون (المتخاذلون وليس الصوفية الحقيقيون) «العنايـة الإلهية»، ويسميها رواد الفكر الأوحد «اليد الخفية» عند آدم سميث، و«التقدم» عند هواة الحاسوب، أو «المادية الجدلية» عند من أفقروا ماركسية ماركس.

هذا هو تاريخ انشقاقاتى الفكرية التى يسميها معتنقو الفكر الأوحد بتاريخ تغيراتى.

ولن يوقف ذلك إلا موتى. وسأستقبله بنفس الحماسة لأن الإنسان لا يحيا إلا ليموت: ويموت ليحيا حياة اليقين الذى يبعث السعادة ويضىء هذا الموت. ذلك اليقين الذى يعتبره آخرون استمرارًا ونورًا.

أ- سفينة «الأرض» التى تغرق

واصلت أشكال عدم المساواة زيادتها بعد خمسة قرون من الاستعمار الغربى وخمسين عامًا من الهيمنة الإمبريالية الأمريكية: فكثر الجوعى والعاطلون والمستبعدون، الذين يوجدون بكثافة فى قاع يسار السفينة، بينما ينتشر على ميمنتها بعض بيوت اللهو والأجنحة الملوكية التى تبحث فى الإنترنت عن تغيرات البورصات العالمية للمضاربة.

وعلى هذا انقسم العالم إلى شمال وجنوب: وفى كل مكان هناك من يملكون ومن لا يملكون.

كيف نتجنب الغرق؟

أهدف من وراء هذا الكتاب إلى إسماع العقول والقلوب لكى نطرح سويًا المشكلة، ونحاول أن نصل إلى حل لها.

فالحل ليس اقتصاديًا فحسب، رغم أن الهم الأول هو تخفيض أشكال عدم المساواة، والحل ليس سياسيًا فحسب، رغم أن إمبراطورية العالم يسيطر عليها اليوم من جمعوا نصف ثروة العالم على أنقاض أوروبا المستنزفة عام ١٩٤٥م، والتابعة فى بداية الألفية الثالثة، بعدما أتوا فى حربين للنجدة والنصرة، عامى ١٩١٧ و ١٩٤٥م.

ولكن الحل ينبغى أن يكون أكثر عمقًا، حيث إن السفينة لا تهتدى إلى طريقها بدون ربان، ولا بقائد سكير أنهكه الفساد. وتظل المشكلة الرئيسية إذن

هى غيـاب الغاية الإنسانية، ولهـذا فإن المشكلة التى سـتـتيح لنا إذا وصلنا إلى حل لها حل المشاكل الأخرى، هى تلك الغاية.

وهنا يكمن سر النجاة؛ لأن أدياننا (المدنية، أو اللادينية) التى نتخذها وسيلة والتى نعلمهـا فى المدارس ووسائل الإعلام لا تطرح السؤال المتـعلق بـ «الغاية» (لماذا؟).

ولهذا سوف نهلك.

ولن تجد هذه المسـألة حلاً فى أى حاسب آلى كأداة تمدنا بالوسـائل، ولكنها ستجد الحل فى قلوب الناس وعقولهم.

إن الحل هو استدعـاء الإيمان الذى يمكن أن تسميـه إلهًا أو أى اسم آخر، ومهـما قلت عن دينك: إنى مـسيـحى أو مسلم أو بلا إله، فإن المـهم هو ما يُحدثه هذا الإيمان فى حياتك.

لأن الدين ليس إلا طريقة فى التـفكير والاعتقاد، ولكن الإيـمان هو طريقة فى الحياة(*).

فلنبحث سويًا إذن.

ب- معركة ضد الليل؟؟

إن الهدف الأسـاسى والأوحد لهذه الوصـية الغامـضة غيـر المنظمة، والتى تمتلئ بالتكرار الملح ولكنها تفيض بالأمل، وتختلط فيـها القصائد والتحليلات الاجتماعية والتأملات حول الله، أو الغايات الأخيرة والكلام المتكرر والمتواصل حول مذابح المجاعـة التى تكلف العالم ما يوازى ضحايا هيـروشيما «كل ثلاثة أيام»، هو توضيح أن هذا الصدع فى العالم كان نتيجة لنماذج التنمية الغربية.

كيف يستطيع الإنسان أنْ يأخذ زمام أمـره بيده تحت وطأة الانتحار الكوكبى

(*) يقصد المؤلف واقع الحـال عند الغالبية من المتدينين، خـاصة فى فرنسا وأوروبا، من انفصال العـقيدة عن الحياة العملية.

خلال القرن الذى بدأ، بعيدًا عن الانحرافات الغربية خلال خمسة قرون من الحداثة وهيمنة الولايات المتحدة؟، بعيدًا عن ذلك السبيل للاضمحلال الذى لا عقل له، ولكنه ملىء بالقوة؟!.

***

ويعتبر البحث عن فلسفة «الفعل» وتكوينها، كنقيض لميتافيزيقا الكائن التقليدية الغربية، مركز تفكيرى الفلسفى والمحرك له.

ومن هنا كان نقدى المنهجى للفلسفة الإغريقية التى اعتمدت منذ بارمنيدوس إلى أرسطو مرورًا بأفلاطون - بدهية خارجية ثابتة.

ولم أتوقف عن طرح هذه البدهية الخارجية وهذا الثبات للنقاش منذ تأملاتى عندما كنت طالبًا بفصل «حركة موريس بلونديل_Maurce Blondel» (الذى أدانته الكنيسة وحظرت نشر كتبه بصفته ينتسب للحضورية(*))، إلى أن وصلت إلى انتقاد نيتشه الأساسى لهذه الخارجانية وهذا الثبات للكائن ولوجوب الكينونة، اللذين يعتبرون أساسًا لكل أخلاقيات وسياسيات وعقائد الهيمنة(**).

لأن هذا الكائن إذا وجد خارجنا وبدوننا، وفى كينونته فوق الوجود المادى، سيكون بالضرورة قاعدة وقانون وجودنا وفعلنا. إنه قدرنا.

وقد سجل المسيح أكبر انشقاق فى تاريخ البشرية، ذلك أنه، وحتى عصره، كان الناس ينظرون إلى الآلهة كحكام قاهرين يتحكمون فى مصير البشر من أعلى فيعاقبون ويثيبون وفقًا لدرجة إذعان وخضوع البشر للأوامر الإلهية، سواء تعلق الأمر بزيوس أو چوبيتر أو يهوه رب الجيوش أو (رب المذابح).

(*) الحضورية: مذهب فلسفى يقول بأن الإنسان يشعر بحضور الله، ولكنه يعجز عن جعل هذا الحضور موضوع علم واضح.

(**) القدر المحتوم، أو المكتوب، والذى يفرض على الناس السلبية والتسليم أمام مختلف أنواع الطواغيت، وذلك المفهوم الخاطئ شاب التفكير الدينى طوال التاريخ، وهو النقيض الزائف لما جاء فى الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وعلى العكس من ذلك، فقد استطاع أضعف البشر من خلال عيسى - عليه السلام- أن يدرك ويعيش شكلاً من أشكال الارتقاء الروحى، الذى لم يعد خارجانية وهيمنة، ولكن أملاً ومسئولية كاملة تتيح له تحقيق مملكة الرب.

واستطاع عيسى بذلك أن ينزع صفة القدرية عن التاريخ. ولم تكن «قيامته» إلا ظاهرة بيولوچية قد تحدث مرة واحدة كمعجزة لشخص ما يمتلك القوة كلها. وهذا هو - فى كل الأيام - رفع عيسى، الذى يحيا من أجل هؤلاء الذين ضَلُّوا. فيحدث هذا الرفع فيهم تغيرًا، فينتقلون إلى حياة جديدة تمامًا وذات معنى.

وتوجد هذه المملكة سلفًا داخل كل إنسان يدرك ضرورة تجاوز ما هو موجود وما يكونه. وهذه المملكة لم تُفَعّل بعد لأن هذه الضرورة نفسها لم توجد بعد بكاملها عند الجميع.

ومن هنا ولدت عندى - فى المراحل الأولى من تأملاتى عام ١٩٣٣م- الرغبة فى أن لا أرى فى الفلسفة مهنة ليبرالية، ولكن ضرورة أن أبحث فيها عن حل يعطى معنى لحياتنا الشخصية ولتاريخنا المشترك، حتى نتجاوز مرحلة الفوضى، وكان ذلك فى الوقت الذى مررنا فيه بأخطر أزمة فى تاريخنا، تلك الأزمة التى بدأت فى الولايات المتحدة عام ١٩٢٩م وانتشرت فى العالم كله وظهرت بشكلها السياسى فى أوروپا بوصول هتلر إلى السلطة.

كانت المشكلة سياسية ودينية حقّا: دينية لأنها تحتم على كل إنسان اختيار الغايات الأخيرة من حياته، وسياسية لأن مسألة خلاصنا الفردى لم تكن وحدها على المحك، لكنها مسألة خلاص المجتمع البشرى كله. كان لزامًا حتميّا أن نأخذ مكاننا فى المعركة، ونختار معسكرنا، ونحدد منهجية للمبادرة التاريخية التى تتيح لنا الوسائل التى نتجاوز بها التناقضات التى تحدثها الفوضى.

وقد ظهر لى فى هذه المرحلة الأولى من طريقى أن الأكثر إلحاحًا - بالنظر إلى ثقافتى الفلسفية فى سن العشرين - أن أحيا على طريقة كييركجارد وكارل

ماركس معًا، أعيش فلسفة كيـيركجارد لأنه رأى - فى تأملاته «الخوف والفزع» حول تضحية إبراهيم - عليه السلام - أن هناك أهدافًا لا نهائية يمكن أن ترى النور بعيدًا عن منطقنا الضعيف وأخلاقنا التافهة والعابرة. وقد وجدت فى ذلك علاجًـا لشتى أنواع الفـردية المثيرة للسخرية التى تجـعل من كل واحد مـركزًا ومعـيارًا لكل شىء، وتقودنا للمـواجهة المسـتمرة بين إرادات التنمـية وإرادات القوة على مـستوى الأفـراد والأمم، واكتشـفت للمرة الأولى الضـرورة الملحة للقيم المطلقة، ليس بعيدًا عنى أو فى السماء ونجومها وآلهتها المزيفة، ولكن فى الحاجة الضرورية الداخلية التى يتعـذر ردها، تلك هى البدهية الأساسية الأولى التى كانت تستطيع وحدها أن تعطى لحيـاتنا وفعلنا نوعًا من الانسجام، وإن لم يكن كذلك فـستـعطيه نوعًـا من الفاعلية التـى تأتى من مشاركـته فى الحـركة التاريخية الواقعية.

ولقد وجـدت عند ماركس الذى كنت قـد قرأته حتى ذلك الـوقت بشغف فكرى محض، ليس مفهومًا دينيا وميتافـيزيقيًا ووضعيًا جديدًا للعالم فحسب، ولكنى وجدت حـاجة أخرى، وهى ضرورة أن تتـخلى عن الفردية فى أن تحل وحدك، وبـالفكر فقط المشـاكل التى تخلقهـا الفوضى الـعالميـة، وضرورة أن تلتحق بقوةِ مـقاومةِ هذه الفوضى، وتناضل مـعها كى لا تخاطر بأن تشـاركها أخطائها وتجاوزاتها، وربما جرائمها فى عالم كانت الجريمة فيه عالمية.

وهكذا أصبحتُ مناضلاً لمدة أربعين عامًا فى حزب يستند إلى منهج ماركس الذى صدقه الواقع التاريخى والممارسة العملية معًا. وكان المناضلون فى المقاومة من ميونيخ يكافـحون تبعية أوروبا لمن جعلتهم الحـرب - بقليل من النفقات - سادة العالم. وقد بدا هذا الحزب بالنسـبة لى أقل سوءًا، بل إنه لم يوجد سوء أصلاً، وقد كانت مـشكلة هذا الوقت أن يعيش ماركس وكييركـجارد فى حياة واحدة، وقد سمـعت سارتر نفسه يقول إن هذا كان طمـوحه. وفى الواقع فقد استخلصنا من ذلك نتـائج متناقضة تماما. وعندما بدأ سـارتر من هذه المواجهة

الدرامية بين الموضوعية وتجاوز الكينونة المادية، حاول أن ينضم فكريًا للماركسية كان هو قد نظَّرها بنفسه ورأى فيها فلسفة لا يمكن تجاوزها فكريًا فى عصرنا. واتخذ بشكل عام موقفًا إنسانيًا فى مواجهة بربرية عصرنا منذ المقاومة (ضد الاحتلال الألمانى)، وحتى حرب الجزائر، ولكن دون أن يقوده هذا الموقف الفكرى المحض إلى التزامات أخرى غير التزامات الجماعات الصغيرة التى عرض فيها تصوراته التخيلية الخادعة عن السياسة النظرية.

أما طريقى فكان مختلفًا تمامًا، ففى المعارك الحتمية التى تمزق العالم، لا نستطيع أن نظل فى أعلى مكتفين بالدعوة إلى الخير، بل علينا أن نتخذ موقفًا من أجل الوصول إلى أقل الضرر (الذى يأتى بشكل عام كما كان عصر المسيح - عليه السلام- من جانب «من لا يملكون»، أى الأكثر فقرًا).

وعلى الأكثر، فإن علينا أن نتمسك بخلق نوع من انفتاح السمو، بعيدًا عن المادية، عند المناضلين بالطريقة التى توحى بها خبرات الكفاح الأكثر إنسانية وربانية فى عصرنا، ذلك هو انفتاح «الكهنة العاملين» أو علماء اللاهوت الداعين للتحرير(*)، والذين يهدفون إلى التوفيق بين التاريخ والارتقاء البعيد عن المادة.

لا أعرف ما إذا كنت كسبت رهانى الأول، ولكنى لم آسف على ما فعلته واحتفظت به خلال هذه الأربعين عامًا داخل حزب أصبحت أنا أحد قادته. ولم أستقل منه أبدًا، ولكنى أُبْعدت عام ١٩٧٠م لتأكيدى أن «الاتحاد السوڤييتى لم يعد يمكن أن يعتبر بلدًا اشتراكيًا».

ولم أتوقف - رغم كل العقبات - عن التصريح بأن «الثورة تحتاج إلى الارتقاء أكثر من حاجتها للحتمية (أو القدرية)».

وكان هناك داخل الحزب صراع مستمر ضد أى تفسير (وضعى) لمفهوم «الاشتركية العلمية». حيث إن الاشتراكية يمكن أن تكون علمية فى وسائلها: مثل تحليل نظام الاقتصاد الرأسمالى الاستلابى، والاستراتيچية التى تلائم هذا

(*) وبلغة الخطاب الإسلامى: العلماء العاملون بعلمهم، وليسوا المكتفين بالقول، والمنفصلين عن العمل.

التحليل، ولكن بشرط ألا نجعل - كما يشير ماركس - الإمكانية المستمرة لمقاطعة هذا الاستلاب أيّا كان حجمه، شيئًا مجردًا.

وهذا ما دفعنا إلى انتقاد جذرى للوضعية الماركسية الجديدة، حتى عندما أخذت مع «ألتوسير Althusser» وتلاميذه شكلاً «بنيويّا» عندما قالوا: «إن الإنسان ما هو إلا دُمية تشكله البنى المختلفة». وقد رفض هذا الشكل من عشرية إلى عشرية كما كان يفعله ألتوسير لحظة الانفصال الإبستولوموچى، (المعرفى)، مما أتاح لماركس أن ينتقل من مرحلة «الأيديولوچيا» إلى مرحلة «العلم».

أما على المستوى الخارجى، فإن هذا الجهد المتواصل لاحتواء لحظة الارتقاء فى الماركسية احتواءً تامًا، أتاح لى - عندما أنشأت وأدرت «مركز الدراسات والأبحاث الماركسية» - تنظيم حوار بين المسيحيين والماركسيين على مستوى الغرب المسيحى من إيطاليا إلى ألمانيا ومن كندا إلى الولايات المتحدة. وقد تعلمت فى هذا الحوار من كثير من علماء اللاهوت المسيحيين: الأب شينو والأب دوبارل فى فرنسا، ومن كاثوليك ألمانيا مثل كارل رانير، أو من البروتستانت مثل جورجن مولتمان، ومن الآباء بارلوثى وجيرادى فى إيطاليا، وكذلك الراعى أروماخا فى تشيكوسلوفاكيا والأسقف يوبنسون فى انجلترا، والأب كورتنى ومودى والأب كانتان لوير وهارفى كوكس بالولايات المتحدة، ومن الكاهن جونزالس رويز، والأب كافّادينا ورامون بانيكار فى إسپانيا.

وفى أوج هذا الحوار فى سالزبورج، طرح الأب رانير، أحد أهم خبراء المجمع الدينى، السؤال الأخير كرد على ما طرحت من أسئلة عندما ذكرت له أن ماركس عرف الاشتراكية أولاً بغاياتها، عندما أعطى منهجية المبادرة التاريخية (وهذه مسألة تتعلق بالوسائل) عندما قال: «إن علينا أن نهيىء لكل طفل يحمل فى داخله عبقرية رافائيل موزار الأوضاع الاقتصادية والسياسية والثقافية التى تتيح له أن ينمى بداخله كل هذه الإمكانات».

وقد أعطى الأب راهتير الإجابة على بحثنا المشترك عندما أوضح لى أن ماركس، كما حاولت أنا أقوم بدوره فى هذا الحوار، لم يحدد إلا غايات ما قبل النهاية بينما كانت المسيحية دين «المستقبل المطلق». وقد كتب ذلك فيما بعد فى تقدمته للترجمة الألمانية والإنجليزية لكتابى: **«من اللعنة (الكنسية) إلى الحوار، ماركسى يخاطب مجمع الأديان»**.

وقد قبلت من جهتى فكرته وسمحت لنفسى فقط أن أضيف التالى: لنعمل سويًا، كاثوليك وماركسيون، لنصل إلى هذه «الغايات قبل الأخيرة»، وإذا كنا نحن، الماركسيون، لدينا الاعتقاد بأننا قد وصلنا إلى «نهاية التاريخ»، فسنكون سعداء بوجودكم جانبنا، أنتم أيها المسيحيون، لتقولوا لنا: عليكم أن تذهبوا أبعد من هذا فى الإبداع، ولكن لا تقولوا لنا ذلك مبكرًا؛ - على سبيل المن - لكى تبعدونا عن طريق الكفاح الذى يقودنا إلى هروب خيّر. يبدو لى إذن أننا أدركنا سويًا الهدف الروحى الذى حددناه لأنفسنا، ولكن يبقى الكثير الذى يجب أن نقوم به لكى نجعل مجتمعاتنا الخاصة تسير نحو هذا الهدف.

ويوضح تراجع الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة للانفتاح الرائع للڤاتيكان الثانى وتضامن الأحزاب الشيوعية، وظهور الاتحاد السوڤييتى والصدع المتواصل بين الشمال والجنوب، «بين من يملكون» و«من لا يملكون»، وانتصار وحدانية السوق، وتحطم الأغلبية، كل ذلك يوضح الطريق الذى علينا أن نسلكه؛ لنجسد الحقائق التى اكتشفناها سويًا.

ومن جهتى فعندما استخلصت النتائج الإيجابية من هذا التوضيح النظرى للمسائل، ولكن بقياس المخاطر الجديدة فى العالم، اقترحت على مجمع الكنائس المسكونى عام ١٩٧٤م (وبحضور مراقبين من الڤاتيكان) أن نوسع حوارنا، حيث تجمعنا - مسيحيين وماركسيين - نفس المرجعيات الثقافية اليهودية والمسيحية، واليونانية الرومانية. اقترحت أن ننتقل إلى حوار أكثر شمولاً، إلى «حوار الحضارات» مع آسيا وأفريقيا وأمريكا الهندية.

وقد قابل المشروع بعض الفتور لأنى عـرّفت الحوار على أنه مبادلة يقتنع كل طرف فيها من البداية أن عنده بعض الأشياء التى يعلّمها للآخر، أى أنه مستعد لأن يعترف بأنه يمكن أن يفتقد شيئًا ما فى حـقيقته الخاصة، وأنه على استعداد كـذلك لأن يطرح ذاته للنقـاش. ولم تُرض هذه الفكرة الـتى يمكن أن توحى ببعض الخلل فى «الكاثـوليكية» التى يُعلن عن عالميـتها الكونيـة منذ قرون، لم ترض المندوبين الكاثوليك (ويجب أن أقول إننى وجدت نفس التـحفظات فيما بعد عند بعض العلماء المسلمين ولأسباب مشابهـة وهى ادّعاء امتلاكهم الحقيقة المطلقة).

ولقد اصطدمت - من الناحيتين - مرة ثانية - بفلسفة الكائن، ومعيار واحد مطلق للحقيقة والخير، وخلق ونظام وُجد ذات مرة من أجل الجميع. وإذا كان الله قد أراد هذا الكائن ونظامـه، فإن تغييره يعـد انتهاكًا للحـرمات، وإذا كان هناك وحىٌ نهـائىٌّ أو نبـوة خاتمة، فـإن النظر إلى ذلك على أنه تجـديد وإبداع يعتبر كذلك انتهاكًا للحرمات.

وتمنعنا المحرمات العقائدية التى أحدثها انعكاس الكائن فى خارجنا من إدراك أن الله - رغم أقـوال عـيسى وحـديث القـرآن - فى عـمل دائب، وأن الخلق مستمر وغير متـناه، وأن كل واحد منا متعاون مع الله الواحد الذى يوجد «فى داخله» دون أن يكون «له وحده»، فكل واحد منا مسئول مسئولية شخصية عن الإجـابة على هذه الضرورة الإلهـيـة. لا بد إذن أن أواصل البحث عن حـوار أوسع بدون شركائى المعتادين من ماركسيين ومسيحيين..

وإذا كنت أشـعر بالتـيـه، أليس من الجنون أن أدّعى أننى على صـواب فى مواجهة كل العالم؟ وفى خضم هذه البرودة المميتة للفراغ والوحدة، قابلت فى النهاية العالم الحقيقى، أى الشامل، بـينما كنت قد حوصرت حتى ذلك الحين داخل ثقافة غربيـة بحتة. ولأنى أستاذ فلسفة حـائز على كل الشهادات الممكنة فى المهنة، فقد أدركت أننى كـنت أجهل كل شىء عن الفلسفات غيـر الغربية، وكل شىء عن الحِكم الـقديـمة فـى الصـين والهند والإسـلام، وعن التـراث

الشفاهى للمـجتمع الأفريقى، وعن كنوز أمـريكا الهندية «مايا أوْ أنكا»(*) التى خربها الغزاة الإسبان. وقد أثار هذا الاستعمار الثقافى الذى فهمته منذ أن كنت فى المدرسة غضبًا لم يعد يفارقنى. فشرعت أقـرأ بشغف تأملات الطاوية(**) للاوتسو، وأعمال تشاونج تـسو الفلسفية، والڤيدا(***) والأوبانيشاد والملاحم الهندية القديمـة لرامايانا ومـاهاباراتا، الأولى فى الرواية الصوفـية لتالسـيداس والثانية التى أخذ منها بها جافادجـيتا الإلهية. وكذلك اكتشفت بوبول ڤاه الذى بقى بعد تدمير الأعمـال التى كتبها شعب المايا حول محارق مـحاكم التفتيش، وكذلـك التى قدمـتها مـجتـمعـات شعب الأنكا وحكايات الـتراث الشفـاهى الأفريقى، والتى ظل بعضـها مثل القايداره فى كتابات أمبـاتى باه. ثم كان بعد ذلك الإعجاب برؤية كبـار صوفية الإسلام للعالم، وأشـعارهم؛ من أمثال ذى النون المصرى إلى الشهرستانى، ومن ربيعة البصرى إلى الرومى وابن عربى.

وبذلك أصـبحت الروح تتنفس من جـديد وبعمق فى عـرض العالم، بـعد الهروب من هواء الغرب غير المتجدد.

وهكذا مـررت بخبرة الإسـلام الأندلسى، عندمـا أنشأت فى قـرطبة مـتحف إسبانيا الوحيد الخاص بحضور وإشعاع الثقافة العربية الإسلامية. والأمر يتعلق هنا بتوضيح أن إسبانيـا عصر الخلافة مثلت عصرًا طويلاً من عصور الثـقافة الإسبانية والأوروبيـة، تلك التى أعادت التـواصل المفقـود بين ثقافـات الشرق والـغرب، وأتاحت اكتـشاف انفـتاح المسـيحيـين العمـيق، عندما جمع رامـون ليل الأديان الإبراهيمية الثلاثة فى كتابه: «حوار الحكماء الثلاثة والرجل الظريف»، وقام الملك ألفونس العاشـر لوساج والأسقف ريمون دى تُولِيد بتـرجمة كنوز الثقافـة العربية الإسلامية التى عرفنا من خلالها ثقافة الإغريق والشرق، إلى اللغة اللاتينية.

(*) مايا: شعب يقطن هندوراس البريطانية وجواتيمالا الشمالية.

وأنكا: شعب يقطن فى پيرو قبل الاحتلال الإسپانى.

(**) الطاوية: فلسفة دينية مبنية على تعاليم لاوتسو الصينى فى القرن السادس قبل المسيح.

(***) الڤيدا: كتب الهندوس الدينية.

وكان هناك مكتشفو اللانهائى العمالقة من أمثال الكاردينال دى كى الذى تجرأ وحلم بمجمع عالمى للأديان ووضع خطته فى كتابه: «سلام الإيمان». كما نجد كذلك صوفية المُعلّم إيكاردت، المأخوذة من ابن سينا الذى فتح آفاق وحدة العقيدة دون النظر إلى اختلاف الأديان. وقد تواصل هذا التقليد مع الإسپان المحدَثين الذين فتح لهم الأب آتان بالاسيو الطريق بكتابه: «الإسلام المسيحى»، والذى أشار فيه إلى الإخاء الصوفى والشعرى لابن عربى وللقديس يوحنا دى لاكروا.

ولم تكن فلسفة «الكائن» والتى تعد أكبر خدعة مسيطرة على الغرب، كما كتب ذلك أحد الفلاسفة المسلمين، حاضرةً أبدًا خارج شبه جزيرتنا التى لا معنى لها. أدركت أن الغرب على مدار مئات السنين كان غربًا، وكان هذا العنوان الجانبى لكتابى الأول: «حوار الحضارات»[1]. ففى أغلب لغات العالم لا توجد كلمة «الكينونة» إلا كرابطة (وأحيانًا لا) وليس كاسم.

وحينئذ فقط فهمت كيف تجاوز بكثير معلِّمى القديم جاستون باشلار كل فلاسفة عصره المزعومين.

فقد أسهم بتأملاته المشابهة عن نظرية المعرفة والإبداع الشعرى بشكل جدى فى فلسفة «الفعل» التى تقابل فلسفة «الكائن». وقد أضعف كانط قبل ذلك الشيء الذى يمثل شبحًا فى ذاته، والذى استمر كذلك فى الفراغ الأثيرى لكوابيس أتباع هيدجر وسارتر.

وبعد دراسة تاريخ العلوم، وبعيدًا عن الرياضيات غير الإقليدية والفيزياء غير النيوتونية والكيمياء غيراللافوَازيّة، رسم باشلار فى كتبه «الروح العلمية الجديدة» و«فلسفة النفى» فلسفةً غير ديكارتية. وبذلك أبعد شبح كائن الألفيتّين جاعلاً من العلم انعكاسًا وليس خَلْقًا لمشروعات باطلة غير معترف بها، ولكنها متجددة فى نفيها الخلاق والشعرى بالمعنى العميق للكلمة.

---

(١) باريس، دينويل، ١٩٧٧م.

لقد تعرض باشلار لقصيدة الخلق المستمر من خلال الفنون، وحلم اليقظة والإبداع الشعرى.

وهذا ما جعلنى أقوم بتأمل مزدوج: أما **التأمل الأول** فهو حول الفنون التى ليست غربية والتى ليست عاكسة ولكنها كاشفة. وليست هذه الفنون تقليدًا لكائن أو لمظهر ما، ولكنها ابتكار أسطورى وشحذ للطاقات. وأما **التأمل الثانى** فيدور حول تطور العلوم فى القرن العشرين من النسبية والكميات إلى البيولوچيا الوراثية والفيزياء الفلكية فى أيامنا هذه. كان حلمى الطموح هو الوصول بطريق باشلار المزدوج إلى نهايته حتى يتلاقى الاتجاهان: فنرى فى الابتكار العلمى حالة خاصة من الإبداع الشعرى الذى يتبعه فحص تجريبى.

وهكذا تمت القطيعة النهائية مع فلسفة «الكائن»، وكان يمكن لفلسفة «الفعل» أن توجد وتحملها حضارات كل الشعوب فى كل العصور.

وعندما تركت تاريخ الفلسفة الغربية الذى كنت مكلفًا بتدريسه فى الجامعة حتى ذلك الوقت، كرّست نفسى للبحث حول علم الجمال، الذى يعتبر ليس كميتافيزيقا الجمال ولكن كتأمل حول فعل الإبداع الفنى.

وأخذنى أولاً - وأنا أعمق محاضراتى حول فن الرسم الأوروبى من سيمابو إلى پيكاسو - الطابع المستقبلى لأعمال الأساتذة الكبار جميعًا. فقد أوضحت فى كتابى «ستّون عملاً تبشر بالمستقبل» هذا اليقين الأول: فكل مبدع جدير بهذا الاسم (أمثال جيوتو، رَمْبراندِت، ڤان جوخ، كاندنسكى وأخيراً پيكاسو) يرسم ليس انعكاس كائن أو ظاهر ولكن مشروع حقيقةٍ لم توجد بعد.

وعندما أتممت هذا البحث، حاولت أن أقول فى كتابى: «رقص الحياة» (الذى كَتب لى بيجار بصدده قائلاً إنه وجد فيه قناعاته العميقة حول فن الرقص) إن الأمرَ يتعلق هنا بتجاوز للحركات النفعية والبروتوكولية بما سماه من ينفذ مسرح نو Nô اليابانى بـ «تقليد حركات الله».

وقد أتاح لنا فن العمارة فى إنجازاته الدينية الكبيرة أن نفهم كذلك لماذا يكون الفن مقدسًا، لأنه يحرك المشاهد ويجعل منه فى حالة قداس وكائنًا بشريًا، لا يكتفى بأن يكون ما هو كائن. ولا يكون العمل كبيرًا إذا لم يحرك الناظر إليه. فالفضاء المسيحى لإحدى الكاتدرائيات مع حركة قبابها البسكالية تحمل فى طياتها اللانهائى. أما الفضاء الإسلامى لمسجد من المساجد فعلى العكس من ذلك، ينقش الإنسان المؤمن على كريستال أعمدته الشفاف. أما القباب الأكثر انخفاضًا فإنها تكون مثل أقواس قزح التى تشير إلى اللانهائى. وعندما نرتقى درجات بروبيدور نكتشف مظاهر الروعة المتتابعة فى المعبد الهندوسى الذى يعتبره الهندوس مركز وخلاصة العالم. وتبعث هذه الأماكن فينا جسديًا مشاعر لا تتجزأ، مثل الشعور بالجماعة والمشاركة وتخطى المعنى الأخير لحياتنا أى الشعور بالإيمان المشترك بعيدًا عن الاختلاف التراثى للأديان.

وهكذا تنفتح الفلسفة بالضرورة، من وجهة نظرى، على علم اللاهوت الذى لا يمكن أن يكون بدوره إلا شاعريًا؛ لأنه التحدث عن الله، وعن هذا الارتقاء (بعيدًا عن المادة)، دون أن يكون هناك معيار مشترك مع البشرية يبين أننا نستطيع أن نحيط به أو على الأقل نحدده بمفاهيمنا، ولكننا نعنيه فقط أو نوضحه بصورنا، وكناياتنا وأساطيرنا؛ لأن الله لا يمكن أن يتواصل معنا إلا بأمثال مأخوذة من خبراتنا.

أصبح هم حياتى المستمر إذن هو البحث عن النقطة التى تَصيرُ عندها العقيدة الدينية والفعل السياسى وفعل الإبداع الفنى شيئًا واحدًا.

ويتضح بجلاء الربط الوثيق بين الإيمان والسياسة، أو البدهية التى نقرر بها غاياتنا الأخيرة، واختيار الوسائل والمناهج لتحقيقها فى نهاية المجهود التى بذلته فى محاولاتى الأولى.

واستمر حديثى عن الله كرغبة فى القـول: إن الحياة لها معنى، وإنى مسئول عن اكتشافه ومحاولة الوصول إليه، وأى بدهية تعنى بالتأكيد اختيارًا يتعذر إثباته وضروريًا معًا. ضرورى كى يعطى لحياتى نوعًا من الانسجام، أى أن يكون شيئًا آخر غير الفوضى غير المسئـولة (كبدهية إقليدس التى أصبحت ضرورية لى لكى أحتفظ باستقامة الطاولة والحـائط الذى أبنيه). ويتعذر إثباته كذلك لأنه لا ينتظر ضمانًا من كائن «وُجد سلفًا» قـد يكون واجب كينونته انعكاسًا لنظام وجد قبل ذلك ويتعذر المساس به. وإذا كنت أحاول تدمـير فكرة أن أجعل من نفسى إلهًا بصفتى «دليلاً» على «وجوده» وكبرهان على وجود الله، فقد أكون مؤمنًا متعصبًا لشبح الكائن الأعلى حتى أنتظر منه عقابًا أو ثوابًا.

ولهذا وكمـا يبدو لى، فإن دين القرن الواحد والعـشرين وهو الإيمان بمعنى الحياة والتاريخ والمحـرك لفعلنا الجماعى والمسئول لكى نقـيم عالـمًا واحدًا، لن يتطور فى امـتداد الأديان الحاليـة بمفاهيم مؤسـساتهـا التقليدية. فـالكل يدعى احتكار الحقيقة القطعية والكلية ويرفض اختلاف الرؤى الثقافية للأديان الأخرى التى أوحى بها نفس الارتقـاء (عن المادية) التى ليس لها - بتعـريفها - معـيار مشترك مع مفاهيمنا.

ويقوى المفهوم اليهودى المسيحى للخلق على -سبيل المثال- الفلسفة الإغريقية عن الهيمنة والنظام الخالد لترتيب أفكار أفلاطون أو تدرج مفاهيم وكائنات أرسطو.

ولأن الله خلق العـالم مرة واحـدة (كان ذلك فى سـتة أيام أو فى انفـجار واحد) فسـيعتبر ادّعـاء تغيير هذا النظام الخالـد انتهاكًا للحرمـات. ولقد حمل بولس إلى المسـيحيـة هذه الرؤية الخطية لـلتاريخ التى كـانت هى نفسـها رؤية العبرانيين.

«لأن الله هو الذى ينشئ فـيكم الإرادة والعمل لأجل مرضـاته» (الرسالة إلى مؤمنى فيلبى ٢ :١٣)

يعتبر بولس إذن مـؤسسًا للاهوت الهيمنة، وقد كانت بصمـته واضحة على

تاريخ الكنيسة، حتى حاولت علوم اللاهوت الحالية الداعية إلى التحرير، أن تعثر على رسالة يسوع المحررة والرافضة، وقيامه بين الفقراء الذين سيحمل إليهم - بصفة خاصة - «البشارة» عن إنسانيتهم المطلقة ضد كل أنواع التحريم والخضوع التى يفرضها كبار الكهنة فى كل الأديان وفى كل العصور.

وكذلك الإسلام فإن له قديسًا مثل بولس وله مستبديه المتطرفين، ويحتاج هو الآخر إلى نظرية تحررية.

ولا يجب أن تنسينا إخفاقات الأديان وارتباطها بالسلطة، وتبريرها الأيديولوچى لشتى أنواع الهيمنة، نهضتها الأولى: تحديدها للغايات الأخيرة. إن إقصاء البعد الارتقائى للحياة الذى يأخذ فى اعتباره حياة الإيمان، قد أدى إلى فوضى أسوأ من الحروب الصليبية ومن محاكم التفتيش. وقد جرَّت وحدانية السوق، التى تعتبر مضادة للدين، ولم تستطع أن تقول اسمها، جرت العالم كلَّه إلى غابة تتصارع فيها إرادات التنمية وإرادات القوى عند الأفراد وعند الأمم.

ولكى نقيس درجة بربرية النظام، يكفى أن نتذكر أنه بعد خمسة قرون من الاستعمار، وفى عام ١٩٩٤م يسيطر ويستهلك أصحاب المزايا الذين يبلغون عشرين فى المائة من سكان العالم على ثمانين فى المائة من ثروات الأرض الطبيعية. وقد أدى ذلك إلى ثلاثين مليون ضحية سنويًا فى البلاد غير الغربية بسبب الجوع وسوء التغذية.

ولا يمكن أن نتخيل دليلاً جامع للبشرية إذا لم يهدف الناس إلى الارتقاء بعيدًا عن رغباتهم الفردية. ولن تؤدى هذه الحرية الخادعة المثيرة للسخرية إلا إلى تحطيم الأقوياء للضعفاء فى حرب الجميع ضد الجميع. ولا يمكن كذلك أن نعطى دليلاً يتعذر رده، أكثر من سمو رؤية ماركس على رؤية آدم سميث الذى يرى أن الإنسان إذا تبع مصلحته الفردية، تتحقق المصلحة العامة. ويقول: «إن يدًا خفيفة هى التى تحقق هذا».

ولم يخف ماركس فى كتابه «رأس المال» إعجابه بديناميكية الرأسمالية،

حيث أقر بأنها قد تخلق ثروات ضخمة، ولكنه توقع أنها قد تسبب كثيرا من عدم مساواة والبؤس مثل الاستقطاب المتزايد للثروة فى أيدى أقلية، واستلاب وإملاق الأغلبية.

وما حاولنا إحيائه أمس تحت اسم حوار الثقافات بين الماركسيين والمسيحيين، ثم حوار الحضارات بين الشرق والغرب، لا يمكن أن يكون إلا عمل الجميع فى استماع متبادل مع يقين يؤسس لأى حوار: إن لدى طرف ما يعلّمه للآخر، وهو على استعداد - نتيجة لذلك - لطرح يقينه الخاص ليذهب إلى أفق حقيقة دائمًا ما تكون بعيدة المنال، ولكنها تكون دائمًا أكثر شمولاً وعالمية وودية.

وعندما يحصل كل فرد، فقط بمشاركته فى المجتمع، على الوسائل الاقتصادية والسياسية والثقافية التى تتيح ازدهاره الكامل، فإنه يتجاوز عند ذلك إنسان ما قبل التاريخ المستلَب، الذى يوجد داخله، ويرى ظهور «مجتمع الأحياء الأصيل».

***

وإذا واصل القرن الواحد والعشرون مسيره بهذه الانحرافات، أى إذا قاده - كما كان فى القرنين الماضيين - حمقى أقوياء، فإنه لن يستمر مائة عام وسنقتل أطفالنا الصغار. وكان من حظى (أو من شقاوتى؟) أن أعيش القرن العشرين كله تقريبًا، وهو أشد القرون دموية فى التاريخ. حيث سال البترول والدم، وازدحم العالم بالمخلفات النووية التى تهدد أبناءنا لقرون عدة، وبالومضات التليفزيونية التى تفضل العرض الذى يخفى عنا الواقع الحقيقى وما نستخلص منه الأدلة التى تقودنا فى الحياة.

أتجول الآن بين أنقاض الإنسانية التى أحدثتها الأسلحة المتطورة باستمرار لتدمر العالم، والتجار الآلهة الذين يسلبوا العالم معناه.

لنبحث سويًا عن أفق جديد يمكن أن يبزغ منه النهار.

هذا ما دفعنى أن أكتب وأتحدث عن الله، وبالتحديد لكى أجمع - وأحيانًا بشكل غير منظم- بعض بذور التأمل الناتج من خبرة قرن كامل ملعون، لأساعد من يريدون ألا يكونوا بشر نهاية الزمان ومن يعتقدون أننا يمكن أن نعيش بطريقة أخرى.

إننا نضع فقط بذور المستقبل كى نعيش بطريقة أخرى. كى نعيش.

***

أما من كانوا قادتى وقدوتى خلال ما يقرب من قرن من الحياة، فإنهم أضاءوا نفس المِشْعَل: أنت يا دوم هيلدر كمارا المطران البرازيلى الذى كتب إلى الشيوعى الذى كانه حينئذ: «عندنا نفس التعطش»، وأنت، أيها الأب شينو أو بالأحرى يا شينو، يا أبى قد كتبت: «بقدر ما أعمل، يكون الله خالقًا»(*). وأنتم أيها الرفقاء: من توريز الذى أوضح لى الجذور المسيحية للاشتراكية الحديثة بمناسبة استشهاد اللاهوتى توماس مونزير، إلى أراجون الذى ما زلت أجد صدى قصيدته «الوردة والخزام» فى قلبى.

لقد ظللنا جميعًا على حافة نفس الهاوية ونفس الفناء الصامت المليء بممكنات لا متناهية. وأدركنا الفراغ الذى يحيط بنا ورغبة لا تروى فى اكتشاف الغابة البكر، ولا أدرى كيف كان من الممكن أن أعيش بدونهم، بدون هذه النداءات الصادرة رغم ذلك من كل الآفاق.

ومنذ طفولة الإيمان هذه حتى أصوائه الأخيرة التى يتعذر الوصول إليها سيطر على نفسى وأضاء ليلى ألف من المحاولات المتناقضة والأخوية.

وكان أول لقاء بيننا - وأقول لقاء لأنه كان لدينا الانطباع فى كل مرة أن شخصًا ما يأتى نحونا، يأخذ بأيدينا، ويقودنا إلى هنا - إنه لقاء يسوع عليه السلام.

(*) اقرأ إن شئت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، و﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

وقد كـان ذلك فتحًـا أساسيّـا فى الإطار - بل سأقـول فى القفص - الذى عشت فيه حتى العام السادس عشر من عمرى فى إلحادى المريح (بلا سؤال ولا بحث) فيـأتى هواء ينشيك كهبـة ريح بحر أو رياح أو لانهائى. إنه عـيسى - عليـه السـلام - الـذى لا يتـركك أبدًا، لم يأت بتـاج من الـذهب ولكن من الأشواك، وأناس ضعفاء متشردين بشـعر مشعث، أحدث به ذلك زوبعات آتية من عرض البحـر. أما قدَماه العاريتـان مثل متسول، فـإنها قادرة على الدوران حول الأرض أسرع من دوران الشمس. لم يكن ملكًا يحكم، ولكنه أخ فقير، ولا نستطيع حتى أن نراه ولكن سنتخيله. أما دعـوته فهى قطعية لا تقاوم. لقد طهرنى من يقينى الهادى ومن كسل الروح الذى تجاوز الحد.

ومع ذلك، ظللت مشـمئزًا مـثل جواد جامح! لقـد عشت يا أخى، يا ابن الإنسان، وخرجت من الحياة التى كانت، وتركـت كبار الكهنة اليهود والرومان يحكمون. لقد حَطَّم هذا القـانون المزدوج - قانون الصُّدُّوقين(*) والقياصرة - شعبًا بكامله.

كيف تعيش إذن حياة بشرية وإلهية وتشارك فى كل تمرد ضد أى اضطهاد؟

ولكى أكون وفيًا بالكامل لك، وأواصل مع جميع رفقائنا الطريق الذى بدأته لحيـاتنا، أكوّن نواة التمرد مع كـل ضحايا الأرض، كان علىّ أن أقـتفى أثرك، ولكن ليس وحدى بل مـعهم جميعًـا. لقد أصبحت مناضلاً بـفضل تيقظك. ولكى أكون وفيًـا لك، أصبحت شيوعيّـا فى هذه الحركة الضخمة للمـقهورين والجوعى، فى هذا التـضامن الذى أعطى - مـثلك - لملايين البشـر بارقة أمل. لقد مات وقتل ملايين البـشر فى هذه المعركة. وفعل ذلك السلطات التى انضم إليهـا - فى أغلب الأوقات - من كـانوا يستندون على فكرك بثـياب مخـتلفة وأصدقاء آخرين. حـتى إن بعضهم كانوا يصبـون اللعنة عليك دون أن يعرفوك

(*) الصُّدوقين: نسبـة إلى الكاهن اليهودى «صُدُّوق». (طائفة من اليهود المحافظين المنتـمين إلى طبقات غنية والذين يتمسكون بالتوراة ويرفضون التراث الدينى الشفهى، منكرين القيامة، والحياة الأخرى، والحساب).

بسبب هؤلاء الذين اغتصبوا اسمك. ومـرة ثانية خان القادة الماديون والروحيون من لا رتبة لـهم: فها هم الكـرادلة بأرديتهم الحـمراء حول رجل يرتدى ثـيابًا بيـضاء كـما كـان فى عصـر الإمبـراطور الرومـانى، الذى كان يلقى تابعـيك للحيوانات.

ثم طُردت من مـجلس القيـادة الآخر الذى يقـول عن نفسـه إنه شيـوعى، وأصبـحتُ ضالعًـا فى موتك الثـانى وتمنيتُ عودتـك. لقد بشرت حـوارييك بذلك: «مـازال عندى أمور كـثيـرة أقولهـا لكم، ولكنكم الآن تعجـزون عن احتمـالها، ولكن عندما يأتيكم روح الحق يرشـدكم إلى الحق كله لأنه لا يقول شيئًا من عنده بل يخبركم بما يسـمعه ويطلعكم على ما سوف يحدث» - يوحنا ١٦ : ١٢-١٣.

«أخبركم بهذا كله ليكون لكم فى سلام، فإنكم فى العالم ستقاسون الضيق ولكن تشجعوا فأنا قد انتصرت على العالم» - يوحنا ١٦ : ٣٣.

لقد أوضح لنا عـيسى مـعنى كمال الإنسـان. وقد ظل حـجر الزواية الذى تدور حوله أفكارى المتـغيرة كما يقـول ليوناردو بوف: «لقد تغيـرت، لا معارك ولكن خنادق».

وتقترب رسالة محمد فـى مكة من رسالة عيسى، حيث توضح لنا ما الذى يجب أن تكون عليـه الحيـاة لإنسان كـامل سكنه روح الله. وكان هـذا كافـيًا ليرصد أغنياء مكة مكافأة لقتله، وينذروه للمـوت كما حدث مع عيسى، عندما قال الكهنة الصدوقيون لبيـلاطس: «ليس لنا إلا ملك واحد هو قيصر». وكان أن فـازوا بصلب يسوع. ولكن مـحـمدًا، الذى هُدد هو أيضًـا بالموت، نجح وأصحابه المخلصون فى الإفلات من المؤامرة والوصول إلى المدينة التى سيصبح فيها رئيس دولة.

إنها تجربة تاريخية فريدة: كيف نحتفظ برؤسنا ونظل أوفياء لتعاليم يسوع عندما نتحمل مـسئولية شعب ودولة؟ لقـد بدأ محمد ﷺ بعولمة الرسـالة، فأمر بتكريم

الأنبياء السابقين الذين أرسلهم الله. ووضع عيسى فى مكان مميز عن كل الأنبياء بسبب ميلاده المعجز (من عذراء)، وحيّاه باسم المسيح، ليس بالمعنى العبرانى كحاكم شعب الله المختار، ولكن بمعنى أنه يوضح كيف نقيم «مملكة الله».

كما نجد القرآن يضع الاختيار التفضيلى للفقراء فى صميم رسالته: يقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وتهدف كل أحكام القرآن الاقتصادية إلى خلق مجتمع مبنى على المساواة. فالزكاة تفرض على الثروة، وليس فقط على الإيراد، بحيث لا يستطيع أحد أن يعيش على ثروة أجداده ولا ينفع مجتمعه. أما الربا فَهُو يعنى تحريم كل مكسب لا يأتى من العمل، وذلك لمنع تركيز المال فى يد جزء واحد فى المجتمع والشقاء لدى الجزء الأكبر(*).

أصبحت حينئذ مسلمًا دونما أن أنكر «يسوع» أو «ماركس»، بل على العكس، كان عندى رغبة فى أن أظل وفيًا لهم. وكما فى كل الأديان، أساء بعض حكّام المسلمين وأمرؤهم وفقهاؤهم الذين فى خدمتهم، إلى الإسلام. وكما حدث فى اليهودية والمسيحية، فقد تجاوزوا العقائد والمبادئ التى كانت قلب رسالة إبراهيم وعيسى ومحمد - عليهم السلام - ليجعلوا الناس يعتقدون- باسم الالتزام الدقيق أن «تطبيق الدين» يعنى الخضوع لمحرماتهم، وليس الكفاح لتحقيق التحرر الإنسانى من الشقاء والمهانة والعبودية لكل وضع يُشَوِّه فيه وجه الإنسان، الذى كرمه الله. وقد رأينا فى معابدهم خلال قرون تفريخ «أحبار» أثرياء متسلطين بكل السلطات التى لقدامى «أباطرة الرومان»، وحكام فاسدين ومستبدين، اعتبروا أنفسهم خلفاء «الخلفاء الراشدين»، وقد جاء بعدهم فى أيامنا أيضًا خلفاء أفسدتهم نفس الرذائل يتخفون وراء تشدد منافق، كما نجد فى أول الأديان السماوية فى الشرق الأوسط حاخامات صُنِعوا فى بروكلين وعملوا فى الخليل وعلموا «كتاب صلوات الحقد».

(*) ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

كان هناك «طالبان» عبريون، ومستعمرون معممون (يرتدون الطاقية اليهودية) كما يوجد فى النصرانية صليبيون، ومستعمرون جدد فى محاكم التفتيش وتجار الأسلحة والمخدرات والانحـراف. وعلى هذا فلا يمكن أن نعتـمد على رجال أى دين مؤسسى مسـيطِر، لنتجنب انتحارًا كونيّا فى القـرن الواحد والعشرين. ومع ذلك نؤكد أنه بدونَ أن نفـقد شيـئًا من الإرث الروحى للألفيات الأخـيرة التى نقلها متمردو هذه الأديان السماوية الثلاثة: فعندما يدخل الاتباع الحقيقيون للأديان الكتـابية الثلاثة فى حـوار حقـيقى مع حكمـة آسيا وأفـريقيـا وأمريكا اللاتينية، ويصارع لاهوتُ التحرير «لاهوتَ الهـيمنة التقليدى»، نستطيع عندها أن نبنى القرن الواحد والعشرين بوجه إنسانى ربانى.

وليست المشكلة الأساسية تقنية أو اقتصادية أو سياسية، وبدون أن نهمل هذه المجالات الثلاثة،فإن الأمر يتعلق بتنظيمها لغايات إنسانية، وللبحث عن وحدة متناسـقة لهـذا العالم باخـتلاف ثقافـاته، كمـا يهدف تنظيم بهـذه الأبعاد إلى الاختلاف عن «العولمة» المزعومة التى تسعى إلى تحـقيق وحدة إمبريالية للعالم: بين الولايات المتحدة وتوابعها الأوروبيـين، فى عالم يكلفه هذا «النمو» ثلاثين مليون ضحية فى العام، بينهم ثلاثة عـشر مليون طفل بسبب المجاعة والحروب التى يؤججها الكبار (وفقًا لأرقام منظمة اليونيسف).

ماذا نفعل إذن لننتقل من مرحلـة الانتحار الكونى إلى بعث الإنسان ووحدة العالم؟

وإذا سار هذا القرن سـيرًا أعمى فى انحرافـاته، فإنه لن يستطيع أن يسـتمر مائة عام، ليس بسبب المذابـح التى سيتعرض لها البشـر فحسب، ولكن بسبب تدمير الطبيعة كذلك.

فلقد حطمت البربرية الجديدة المسمـاة بالإنتاج التكنولوچى والحداثة وكذلك التقدم، كل شىء فوق الأرض وتحت الأرض، فى المحيطات وفى السماء، كما فى العلاقات مـع الأحياء. دمرت كل ما كـان يسمح عبر مـلايين السنين بنشر الحياة والإنسانية.

وقد أتاحت السيطرة الإعلامية على الجماهير تخدير الضمائر إلى درجة أنستها الهاوية والموت الذى يقودها إليها «الفكر الأوحد»، أى غياب التأمل حول الغايات ومعنى التاريخ الإنسانى.

وها هو المبشر الأمريكى يعطينا الصورة الأكثر دموية لهذا الانحدار: فهناك مائتان وخمسون مليونًا من قطع الأسلحة المختلفة، لمائتين وخمسين مليونًا من البشر، وأطفال قتلة فى سن التاسعة، ومليونان من المسجونين، ومليارات الدولارات من الديون (أكثر من مجموع انتاج دول العالم الثالث)، وثلاثة وثلاثون مليونًا من الفقراء، وحيث واحد فى المائة من السكان يمتلك سبعين فى المائة من الثروة الوطنية، وحيث هناك طفل واحد من كل ثمانية لا يسد رمقه فى «أكثر البلاد ثراء». وها هى الولايات المتحدة الأمريكية تعيش فوق كل الوسائل وعلى حساب بقية العالم: فالمضاربون يقومون بأعمال القرصنة فى الأسواق العالمية، والعتاد الحربى يدمر السكان والبنى التحتية، ويعود بهم إلى الوراء قرونًا عديدة بحرب «غير متكافئة»، وهذا يعنى أن هذه الحرب تشن بوسائل تقنية دون أن يكون هناك معيار مشترك مع قوة مقاومة الخصم: فتجد الطائرات الحربية مقابل المدفع الرشاش، كما كان فى حروب القرن الماضى الاستعمارية: الرشاش مقابل الرمح.

أصبحت إسرائيل شيكاجو الصغيرة، فها هى تغزو فلسطين بدبابات زنة أربعين طنًا مقابل بنادق خفيفة وقاذفى الحجارة، وما ذلك إلا دليل على الانحطاط الأخلاقى لعالم اختفى منه تمامًا مفهوم «الشرف».

وتحتاج هذه الأزمة الكبيرة شيئًا آخر غير ثورة سياسية. وليست التغيرات الحقيقية والعميقة فى العالم إلا نتيجة لظهور أديان «جديدة»، (منسلخة من الأديان الحقيقية) فإننا. وكل هذه الأديان (اليهودية والمسيحية فى الغرب، والإسلام فى الشرق الأوسط) ترتبط وأحيانًا تندمج مع السلطات المهيمنة بحيث تستخدم غالبًا - وبعيدًا عن أن يتم تجديدها - فى حفظ وتثبيت السلطات الموجودة بالفعل، وتشعل المواجهات السياسية بإعطائها مذاقًا روحيًا.

وما نحتاج إليه اليوم هو تجديد وإدراك للإيمان كبُعد مكون للإنسان فى توحده، وليست الثورات فحسب هى التى تبدأ فى رأس البشر وقلبهم، ولكن كذلك التغيرات الحقيقية فى القدر. وللأسف فإن كثيرًا من الثوريين يريدون تغيير كل شىء ما عدا أنفسهم.

إن إدراك الوحدة الإنسانية من خلال وحدة الإيمان وليس «الدين الجديد» هو ما نحتاج إليه اليوم (وقد كان يهودى مينوحين من بين من بشروا بذلك برؤية واضحة). وذلك فى لحظة يؤجج الصراع فيها جمود المؤسسات التقليدية فى اليهودية والمسيحية والإسلام، تحت قناع الحديث الذى يتصف زيفًا بـ «الورع».

وهذا يقتضى ألا يدعى التفرد أى دين من الأديان الموحى بها. ويستلزم تفرد وحدانية الله الذى تدعو إليه الأديان أن ندرك نقص كفاياتنا وأهليتنا. ولن يتم حوار طالما أن كل واحد يؤكد من البداية أنه يمتلك الحقيقة المطلقة كلها. وعلى العكس من ذلك، نستطيع أن نبدأ حوارًا بما يفتقده كل واحد من أدياننا والذى يمنعه من المشاركة فى الإيمان الأوحد.

***

هل يجب علينا إذن، أمام آلاف الخيانات التى ارتكبت فى هذه الأديان «الموحى بها» أن نصبح «ملحدين متصوفين» يتخلون عن إبراهيم أو عيسى أو محمد – عليهم السلام – أم نواصل معركتهم؟ إن الطريق مفروشة بحجارة حادة تحت أقدام عارية.

إن من لا يخشون من مجتمعاتهم قد رسموا لنا الطريق الذى لا حيدة عنه، أى أنهم مروا بتجربة السمو مع جميع الشهداء المشهورين أو المغمورين، والأحياء والموتى من أفريقيا وأمريكا اللاتينية والمغاوير المسلمين، هؤلاء جميعًا قد أوضحوا لنا ما هو الدين الحقيقى وما هو الاهتداء العملى الحقيقى: إنه حياة كاملة تتفاعل فيهما.

قد شهد كل هؤلاء - أيّا كان إيمانهم - أن الله ليس كائنًا ولا معلمًا منفصلاً عن الخلق، ولكنه «فعل» و«نداء». وقد جمع مارجريت بارتولومى دى لاس كازاس والأمير عبد القادر، بنفس الورع، التأمل الصوفى فى الليل ومعارك النهار.

لقد عرفوا، وعلّموا البشر كيف يعيشون زمن العواصف، بسكون واطمئنان من كانوا يؤمنون بإله يمثل كل شىء، بمعنى أن فزع الحرب وسرور الحب يعتبران جزءًا من نفس الحقيقة الكلية، وقد أوضح أبطالنا الأسطوريون أو التاريخيون لنا «الحقيقة، والطريق، والحياة».

إن الحياة بالإيمان هى وحدها القادرة على رؤية الحقيقة الكلية والمشاركة فى كل المعارك، كالإله فيشنو الذى دعا إليه «أرجونا - Arjuna»: «أن تكون واحدًا مع الكل» كما كان يغنى الأوبانيشاد. وهذا يعنى أن أَعْمَق ما فيك يمتثل للقوى الأكثر قداسة فى هذا الكون الكلى، وهوما سماه كل المناضلين منذ آلاف السنين إلهًا.

وليكن الاسم ما يكون! طالما أنك تعرف كيف تكون مؤمنًا به. إن السباحة فى العاصفة من غير أن تغرق نفسك يجعلك تخرج منتصرًا على قوى الشر. مهاهو بونهوفر يقول:«عليك أن تساعد الله في معركته».

وليس إلهك هو القاضى الذى يدين إهمالك وهزائمك، وليس هو المنقذ غير المنتظر الذى يأتى لنجدتك عندما تقع تحت قبضة الأقوياء. ومنذ كانط لم يعد الله كائنًا ولكنه بدهية.

وعندما تتخلى عن كل شىء وحتى عما يربطك بالأقوى، يبقى عندك نداء إلى المقاومة كذلك. وقد كتب «باربوس - Barbusse» الذى اعتبروه كاتبًا بلا إله قائلاً: **«إن أمل الإنسان هو حقيقة الله، وأعظم الآثام هو اليأس والتخلى عن المعركة».**

والإيمان هو أن تحـاول رؤية الغاية وأن تكافح من أجلهـا، ولم تكتب هذه الغاية مرة واحدة فى مستقبل جامد. إن الإيمان هو مسئوليتنا فى كل لحظة عن تحـديد هدف لسهم الزمـان. وهو كذلك هذه الرؤيـة الكلية للعـالم، ولتطوره المستمر، وهو مشاركة كل فرد فى إقامة «مملكة الله» كلٌّ على قدر قوته.

ويستطيع كل واحـد منا أن يسيـر فى هذا الطريق: فسيـشعر عـامل النظافة الفرحة، لأنه يعلم أنه سينظف شارع المملكة، وسيعلم القائد السياسى أن إرضاء ناخبيـه ليس هو الهدف، وإنما الهدف هو المشاركـة فى وحدة العالم الحقيـقية: تلك الوحدة التى سيـستطيع كل طفل يحمل فى داخله عبقـرية موزار أن يصبح بدوره موازار، ونحمل جميعًا فى هذا اليوم لواء الإمبراطورية المنتصر.

ولهذا فإن علينا ألا نتعلم مشاهدة العـالم الصغير على طريقة الإلحاد التحت إنسـانيـة، والتى لا ترى فى الطائر إلا ريشـه،وفى الإنسـان إلا المؤامـرة التى يحوكها والجريمة التى يُعِدُّ لها؛ كما أنها لا ترى فى السماء إلا سحابة تمر تنذر بعاصفة شتاء أو جو الصيـف الخانق. وبالمثل فهذه الطريقة لا ترقى بالإنسانية، إذ هى طريقة عالِم حوّل الواقع إلى مفاهيم.

علينا كـذلك ألا ننظر للعالم بطـريقة من هو غـير إنسـانى يدعى أنه يعلمنا الخير والشـر، كما علمه إياه أبواه أو كاهنه، بدلاً من الاهتـمام المتواصل بخلق وحدة العالم، أو على الأقل عالمنا حتى ولو كان صغيراً.

ولكى نختـبر زلزال الأرض والسمـاء، لسنا فى حاجة أن نذهب إلى المعـبد اليهودى أو الكنيسة أو المسجد أو حتى إلى بروبيدور.

وهذا الشاعر الأوردى (هندوسى ومسلم مـعًا) كبير Kabir يكتب فى القرن الخامس عشر:

«يا إنسان الإيمان، أين تبحث عنى؟

إنى هنا بجوارك

لستُ فى المعبد ولا فى المسجد

لستُ فى شعائرك ولا فى طقوسك. . . .

إذا كنت حقًا تبحث عنى

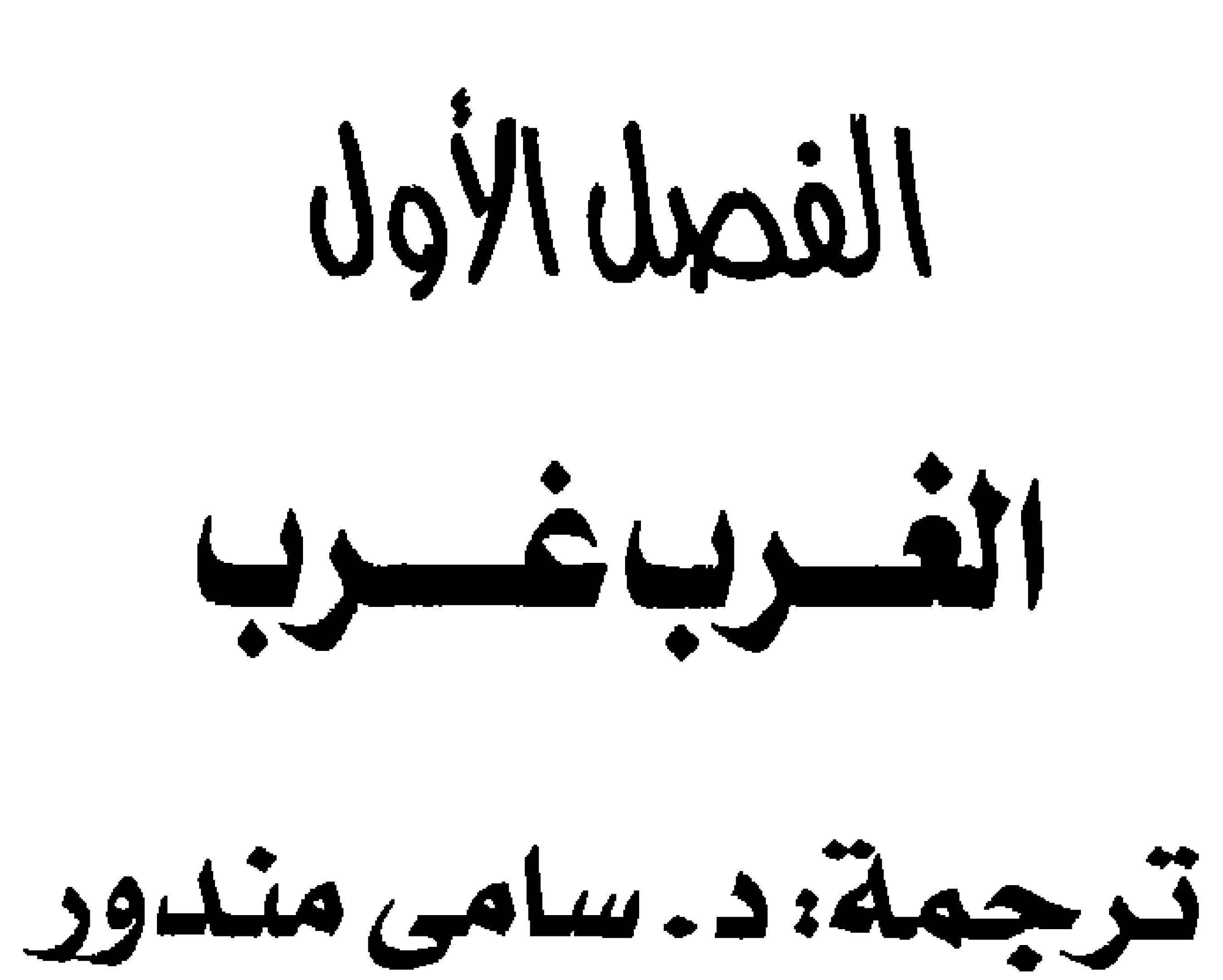
فإنك قد وجدتنى»

***

ويمكن لانقلاب حياتنا أن يصيبنا كخفقة حب تحت شجرة مورقة. لا أدرى من أين أتت ولا ما هى رائحتها: ليست تلك رائحة البخور وعقارات الهلوسة، تلك هى الشعلة الصغيرة التى تتفاعل داخل كل فرد منا دون علمه أحيانًا. وهى كذلك أغلب الوقت دون أن نشك فيها.

ويمكن أن تكبر هذه الشعلة فى كل لحظة وكل حركة - كعاطفة - على مستوى العالم. وهذه عيناك أرى فيها كل شىء. الأشياء كما هى بلا مستقبل ولا ماضٍ، وهناك العين الثالثة كما كان يسميها ريشارد دى سانت ڤيكتور. تلك التى تمنحك المعنى: إنها عين السير والازدهار الإنسانى، وعين المدلولات والغايات. وستنمى ما تعتقد أنه عالمك بعيدًا عن الأفق، أى حتى اللانهائى لكى استخدم كلمة أكثر ضيقًا فى معناها.

وبدأت الحياة الجديدة، الحياة الحقيقية؛ لأنها ليست شيئًا آخر غير الحقيقة المطلقة، التى أصبحت أنت كذلك شاهدًا عليها ومحتفيًا بها.



الفصل الأول

الغــرب غــرب

ترجمة: د. سامى مندور

الغرب غرب

يبدو بالنسبة لنا- نحن الغربيين- أن طريق الهيمنة الذى أخذ اليوم اسم العولمة أضحى ممهداً جداً. وهذا الطريق يضرب بجذوره إلى آلاف السنين منذ أسطورة «الشعب المختار» التى بررت إبادة الآخرين، حتى «الإمبراطورية الرومانية» التى ادعت أنها تضم فى حدودها كل العالم المعروف آنذاك، وهذا ما سمته أوروبا بـ«الحضارة» (كما لو كان ذلك حكراً عليها) لكى تعطى الشرعية لاستعباد واستعمار الشعوب الأخرى. أما قادة الولايات المتحدة فقد جعلوا مهمتهم - التى كلفهم بها القدر - هى قيادة العالم لإقامة نوع من «العولمة»، أى نظام وحيد خاضع لما سماه أحد منظريها بـ«قانون السوق».

هذا الكتاب ضد هذا الدين الجديد الذى لايجرؤ أحد أن يعلن اسمه وهو: وحدانية السوق.

ولكى ننجز مهمتنا ونحقق الوحدة المتناسقة لعالم اليوم الذى انقسم إلى شمال وجنوب، بعد عشرين قرناً من انفصال الغرب، وخمسة قرون من الاستعمار، وخمسين عاماً من الهيمنة الأمريكية الإمپريالية، نجد من الضرورى أن نرسم منحى تطور الغرب النهّاب، ونعود إلى أسباب الانقسام، ونبحث عن الوسائل التى تضع نهاية لذلك. فنضع نهاية لهذا الصدع الذى يزداد باستمرار- حتى فى الغرب نفسه - بين يملكون ومن لا يملكون.

وهكذا سنستطيع أن نقدر المشكلة تقديراً حقيقيّاً: إنها مشكلة الفقر والجوع الذى يعصف بملايين المستعمَرين، والبطالة فى البلاد الصناعية، والهجرة (التى ما هى إلا انتقال عالم الفقر والجوع إلى عام البطالة والإقصاء)؛ وهذه

المشكلات تجسدهـا مشكلة واحدة هى «العولمة»: وهى اسم مـرادف لطموحات الهيمنة العالمية لدى الولايات المتحـدة والتابعين لها، الذين يقودوننا - فى القرن الواحد والعشرين- إلى انتحار كونى.

وكلمـة الغرب هذه كلمـة مـرعبـة- فالألمان يقـولون Abendland أى بلاد الظلام.

ماالذى نجنيه اليوم من حضارتنا المنحطة؟

ويؤكد «پول ڤاليرى - Paul Valéry» أن ثلاثة تقاليد شكّلت أوروپا:

- المسيحية وبأكثر دقة الكاثوليكية، فى المجال الأخلاقى.
- التأثير المستمر للقانون الرومانى فى مجالات القانون والسياسة والدولة.
- التراث الإغريقى فى مجال الفكر والفنون.

ولماذا نفصل هذه «التـيارات» الثلاثة عن مصادرها؟ لأنه هكـذا يتولد الإيهام بأن الغرب ما هو إلا بداية مـطلقة (ليس قبله شىء)، وأنه ظهر كنبْـتَة قد نمتنع عن تتبع جذورها، نبتة منعزلة ووحيدة كنوع من المعجزة التاريخية.

إن ذلك بمثابة إنكار لما هو جوهرى:

فإن ما اتفق على تسميته غَرْبًا، ولد فى العراق ومصر، أى فى آسيا وأفريقيا.

أ- أسطورة الاستثنائية العبرية

ثبت من خلال الكتابات الهـيروغليفية فى مصر والمسـمارية فى العراق، أنه فى نهاية الألفيـة الرابعة قبل الميلاد، العصر البـرونزى القديم، جاءت هجرات كثيفة من البلاد المجاورة (لا سيما شبه الجزيرة العربية) إما بسبب موجات الغزو أو بعد التغيرات المناخية التى أصحرت تلك البلاد.

ثم دخل المهاجرون إلى منطقة يمكن العيش فيهـا سُميت من ساعتها «الهلال الخـصيب»، وهى تمتـد من العراق إلى مـصر. وكـان الأراميـون هم أول من

وصلوا إلى هناك واستقروا فى الأرض التى هى الشام الآن، وشكلوا مركز حضارة فى البلد التى سميت بداية من أواسط الألفية الثانية قبل الميلاد ببلاد كنعان (١).

ثم جاءت هجرات البدو العبرانيين متأخرة، واندمجوا بشكل عام سلميّا مع السكان الأصليين الذين لا يمكن مواجهتهم عسكريّا؛ لأنهم كانوا متحضرين وأنشأوا المدن المحصَّنة.

وفى ضوء تقدم علم الآثار، فإن تاريخ العبرانيين المزعوم- كما أراد حاخامات دولة إسرائيل، الأكثر إظلامية، أن يستخدموه لتبرير ملكيتهم لما يعتبرونه أرضهم الأصلية التى وهبها الله لهم - لا يظهر إلا كـ «أسطورة» محضة. وهذه هى كل الشرعية التاريخية لـ «دولة إسرائيل الحالية» التى يمكن أن توصف بوضوح بالأسطورية. وهذا وصف أعطاه لها المؤرخون الإسرائيليون الذين نستطيع أن نتذكر قولهم الجرىء: «لايوجد منذ نشأة دولتنا حتى وقتنا الحاضر إلا أسطورة؟»(٢).

ويعتبر ذلك حقيقيّا: فليس هناك أىّ دليل أثرى أو وثيقة غير توراتية تتيح لنا تأكيدًا تاريخيّا.

ويعترف أحد العلماء المهتمين بالحفاظ على تاريخية التوراة مثل ر. دى فو ومعه كل الباحثين الآخرين بما يلى:

«لا نجد فى أى مكان إشارة واضحة إلى العبرانيين، أو إلى الإقامة فى مصر، أو الخروج، أو حتى إلى غزو بلاد كنعان، وفشلنا كثيراً فى أن يقطع هذا الصمت أثار جديدة»(٣).

وقد أرادت أديان الغرب المسيحى أن تجعل من تاريخ القبائل العبرية «تاريخًا

---

(١) رونالد دى فو: تاريخ إسرائيل القديم (الجزء الأول): من البداية حتى الاستقرار فى أرض كنعان، باريس، جان، جابالدا وسىّ، ١٩٧١م، ص ٥٨.

(٢) بينى موريس، راجع الفصل الأول من كتاب بينى موريس.

(٣) ر. دى فو. سبق ذكره، ص ١٥٤.

عالميًا»، حتى إن بوسويه فى القرن السابع عشر رأى فى إله بنى إسرائيل الإله الحقيقى الذى يملك السموات وتتوقف عليه الإمبراطوريات[1].

وما هذا التاريخ إلا نتيجة لمزيج تلفيقى من تقاليد الشعوب البدوية القادمة من شبه الجزيرة العربية. وكان المناخ فى تلك المنطقة يزداد جفافًا وتصحرًا، فاتجهوا نحو ما يسمى بالهلال الخصيب، حيث وجدوا فيه المرعى الدائم لأنعامهم والإمكانات المثُلى للتحضر.

وهكذا - لا نذكر إلا المثال الأكثر دلالة - فإن ما كان يمثل - وفقًا للتوراة - صعود قوة إسرائيل، ليس صحيحًا، حيث لا يظهر اسم داود ولا تاريخه فى أى مصدر غير التوراة، لا فى نص ولا فى نقش، ولا فى بقايا أثرية.

والتوراة وحدها هى التى تعطينا سيرة مفصَّلة (صموئيل ١، صموئيل٢)، ولا يوجد أى مصدر آخر غير الكتاب المقدس، ولا أى بقايا أثرية تخص وجود وحياة داود المثيرة. ومع ذلك، فمنذ ثلاثين قرنًا وحتى «كتاب تعاليم الكنيسة الكاثوليكية» الصادر عام ١٩٩٢م الذى أصدره البابا يوحنا بولس الثانى، نقرأ (فى كتاب التعاليم ص ٣٥، ١٠٥) ما يلى:

«تحكم كنيستنا، على كل الكتب بالقدسية سواء كانت من العهد القديم أو العهد الجديد، بكل أجزائها، فالله عندهم هو المؤلف».

وقد شملت التعاليم ص ٣٨، ١٢٠ كتابى صموئيل وكتابى الملوك كجزء ثابت من الكتاب المقدس ص ١٢١.

ويأخذ كتاب التعاليم فى اعتباره حكم صموئيل (صموئيل١٣-١٤) الذى يرى أن داود رجل بقلب إله، وهكذا يلحق يسوع بنسب داود (كتاب التعاليم ص ٩٩، ٤٥٥)، حسب أنجيل متى (١/١٦).

---

(١) بوسويه: خطاب حول التاريخ العالمى: «إن الإله الحق هو إله إسرائيل؛ هذا الإله الواحد الصمد» ص ٢٧١. «ولكن تذكر ياسيدى أن هذا التسلسل الطويل للأسباب الخاصة التى تبنى وتنهى الإمبراطوريات، يتوقف على أوامر سرية للعناية الإلهية، فالله «فى السموات العُلَى، يملك مقاليد كل الممالك» ص ٥٥٨ الجزء الثالث، الفصل السابع.

نسب يسوع المسيح

هذا سجل نسب يسوع المسـيح ابن داود ابن إبراهيم: إبراهيـم أنجب إسحق. وإسحق أنجب يعـقوب. ويعقـوب أنجب يهوذا وإخوته. ويهـوذا أنجب فارص وزارح من ثامار. وفارص أنجب حـصرون. وحصرون أنجب أرام. وأرام أنجب عميناداب. وعميناداب أنجب نحشون. ونحشون أنجب سلمون. وسلمون أنجب بوعز من راحاب. وبوعز أنجب عوبيد من راعوث. وعوبيد أنجب يسى. ويسى أنجب داود الملك. وداود أنجب سليمان من التى كـانت زوجة لأوريا. وسليمان أنجب رحبعام. ورحـبعام أنجب أبيا، وأبيا أنجب آسا. وآسـا أنجب يهوشافاط. ويهوشافاط أنجب يورام. ويورام أنجب عزيا. وعزيا أنجب يوثام. ويوثام أنجب أحاز. وأحاز أنجب حـزقيا. وحزقيا أنجـب منسى. ومنسى أنجب آمون. وآمون أنجب يوشيا. ويوشيا أنجب يكنيا وإخوته فى أثناء السبى إلى بابل. وبعد السبى إلى بابل، يكنيا أنجب شألتئيل. وشألتئيل أنجب زربابل. وزربابل أنجب أبيهود. وأبيهود أنجب ألياقيم. وأبيهود أنجب عازور. وعازور أنجب صادوق. وصادوق أنجب أخيم. وأخيم أنجب أليـود. وأليود أنجب أليعازر. وأليعـازر أنجب متان. ومتان أنجب يعـقوب. ويعقوب أنجب يوسف رجل مريم الـتى ولد منها يسوع الذى يدعى المسيح. فـجملة الأجيـال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جـيلاً؛ ومن داود إلى السبى البابلى أربعـة عشر جيلاً؛ ومن السـبى البابلى إلى المسيح أربعة عشر جيلاً. وهكذا يدخل يسوع فى نـسب داود المسيحى (كتاب التعاليم ص ٩٩، ٤٤٥).

تعتبر حياة داود فى تناقض كبير مع حياة المسيح.

فمثلاً يحكى سفر صموئيل الأول كيفية زواج داود من ابنة الملك/ النبى شاول:

. . . فأجاب داود «من أنا ومـا هى حياتى؟ وما هى عـائلتى وما هى مكانة عائلتى فى إسرائيل حتى أصبح صـهراً للملك؟» (١٨ : ١٨) «أتظنون مصاهرة الملك أمرًا تافهـًا؟ أنا لست سوى رجل مسكين حقير. . . . فـقال شاول لهم:

هذا ما تقولونه لداود: **إن الملك لا يطمع فى مهر بل فى مئة غلفة من غلف الفلسطينيين، انتقامًا من أعداء الملك**... وقبل أن تنتهى المهلة المعطاة له، انطلق مع رجاله وقتل **مائتى رجل من الفلسطينيين وأتى بغلفهم وقدمها كاملة لتكون مهراً لمصاهرة الملك**، فزوجه شاؤل عندئذ من ابنته ميكال» (١٨ : ٢٣ - ٢٧).

أما زواج داود من امرأة أوريا الحثى، فقد حكاها سفر صموئيل الثانى كما يلى: . . وفى إحدى الأمسيات، نهض داود عن سريره وأخذ يتمشى على سطح قصره، فشاهد امرأة ذات جمال أخاذ تستحم. . فأرسل داود من يتحرى عنها، فأبلغه أحدهم: هذه زوجة أوريا الحثى، فبعث داود يستدعيها فأقبلت إليه وضاجعها. . . وحملت المرأة فأرسلت تبلغ داود. . فوجه داود إلى يوآب: أرسل إلى أوريا الحثى. . . وحين مثل لدى داود استفسر منه عن سلامة يوآب والجيش والحرب. . ثم قال لأوريا: امضى إلى بيتك واغسل رجليك. . غير أن أوريا لم يتوجه إلى بيته بل نام مع رجال الملك عند باب القصر فأخبروا داود فسأله داود: ألم ترجع من سفر؟ فلماذا لم تمض إلى بيتك؟ فأجاب: التابوت وجيش إسرائيل ويهوذا معسكرون فى الخيام، وكذلك سيدى يوآب. . فهل أتى أنا إلى بيتى لآكل وأشرب وأضاجع زوجتى؟ أقسم بحياتك لن أفعل هذا الأمر.

مقتل أوريا

وفى الصباح كتب داود رسالة إلى يوآب بعث بها مع أوريا، جاء فيها: اجعلوا أوريا فى الخطوط الأولى. . ثم تراجعوا من ورائه ليلقى حتفه. . .

تبليغ داود بمقتل أوريا

فانطلق الرسول إلى داود وأطلعه على آخر أنباء الحرب. . . ومات عبدك أوريا.

سفر صموئيل الثانى (١١: ٢ - ٢٥)

ثم تتكلم بقية الآيات عن زنا ابن داود بأخته (أمنون يغتصب ثامار أخت

أبشالوم)، وقتال داود تارة ضد الفلسطينيين، وتارة طلبه من الفلسطينيين أن ينضم إليهم فى قتالهم ضد العبرانيين، ولكن الفلسطينيون رفضوا، ثم قتاله المستمر مع الجشوريين، والجرزيين، والعمالقة. . . . **«وهاجم داود سكان الأرض فلم يستبق نفس واحدة ... واستولى على الغنم والبقر والحمير والجمال والثياب... ولم يكن داود يستبقى رجلاً أو امرأة على قيد الحياة» صموئيل الأول (٢٧: ٨-١١).**

بل قاتل يهود ضد بيت شاول الملك/ النبى، وأخيرًا قاتل داود ابنه أبشالوم، الذى عاشر محظيات أبيه داود. ولا ننسى بالطبع أن داود قاتل الفلسطينيين ثانيًا، والموآبيين.

وبعد ذلك قابل فى جولاته امرأة جميلة تدعى أبيجال كان زوجها نبيال قد مات، فتزوجها داود (صموئيل ٢٥: ٣٩)، «وهذا سجل بمواليد داود الذين أنجبهم فى حبرون: بكره أمنون من اخينوعم اليزرعيلية، ثم دانيئيل من أبيجايل الكرملية، والثالث أبشالون بن معكة بنت تلماى ملك جشور، والرابع إدونيا بن حجيث والخامس شفطيا من أبيطال، والسادس يثرعام من عجلة زوجته. فكانت جملة المولودين له فى حبرون ستة أبناء . . . أما الذين أنجبهم فى أورشليم فهم: شمعى وشوباب وناثان وسليمان، وهؤلاء الأربعة ولدتهم بثشبع بنت عمئيل، وكان له تسعة أبناء آخرون . . . وجميعهم أبناء داود ما عدا أبناء المحظيات. سفر أخبار الأيام الأول (٣: ١-٩).

وبعد سبع سنوات وستة أشهر من الحكم فى الخليل، واصل داود أعماله الكثيرة فى القدس التى حكمها ثلاثًا وثلاثين سنة.

تلك هى قائمة أعمال داود والتى طبقًا لها قال بولس عام ١٩٩٢م إننا نستطيع أن نتعرف فى عيسى على صفات ابن داود الأساسية. (تعاليم ١٩٩٢م، ص٩٨). وهو «ابن الله فى قوته» (تعاليم ١٩٩٢م، ص ٩٩). وهو «عيسى مخلص بنى إسرائيل» (تعاليم ١٩٩٢م، ص ٩٩). «وهو خليفة داود ويتمتع بجميع صفاته الرئيسية» (تعاليم ١٩٩٢م، ص١٠٥).

وتعتبر وفاة «سليمان» أول حدث يمكن أن يؤرخ له في تاريخ إسرائيل. لأننا يمكن أن نقيم منه علاقة تاريخية مقارنة بتاريخ الإمبراطورية الأشورية الجديدة. وقد تجمعت الأدلة في الواقع منذ أكثر من قرن لتأتي على كل أساطير «الاستثنائية العبرية واحدة واحدة».

أما فترة حكم سليمان والتي وصل تاريخها إلينا مجزءًا عبر التراث الشفاهي، فقد بدأ كتابتها وتأليفها في شكل تاريخ متناسق. وقد تم أول جمع لهذا التاريخ على يد من سمّاه المفسرون بـ «اليهوى- Yahvist » في القرن العاشر وسيكتمل بعد ذلك.

أما التراث الذي يوحي بأن إسرائيل قد تكون نشأت كهوية تاريخية منذ بداية الألفية الثانية (عصر إبراهيم الخليل)، وأنها يمكن أن توصف بالموحِّدة منذ هذا الوقت، هذا التراث لا يتفق مع الحقيقة التاريخية.

كان الاتجاه نحو التوحيد ثمرة إعداد طويل تكون في مجمله في الشرق الأوسط، من العراق إلى سوريا وفلسطين ومصر.

وقد يكون الخطأ ونحن نتحدث عن «الاستثنائية التوراتية» أن نفصل التوراة الكنعانية[١] عن مجمل التأثيرات الروحية للشرق الأوسط. حيث إن ذلك فقط يتيح لنا أن نقيم «وصايا كنعان»[٢]: فإن كلمات وتعبيرات وجمل كاملة من التوراة العبرية، تبدو فجأة في نصوص القرن الرابع عشر قبل الميلاد .. وستوضح اللوحات الأوجارية الخلفية الكنعانية للعهد القديم التي أدركها بعض المفسرين والمؤرخين منذ وقت طويل[٣].

وكان هناك خلال المواجهات الأولى بين الكنعانيين والعبريين رفض متبادل

---

(١) أُخذ هذا التعبير من عنوان كتاب هـ.أ. ديل ميديكو: التوراة الكنعانية في نصوص رأس شمرة، بايوه، ١٩٥٠م.

(٢) وهذا عنوان كتاب آخر قيم وهو لـ«جان جرى» عنوانه «وصايا كنعان» ليدن، بريل، ١٩٥٧م.

(٣) «أديان الشرق الأوسط» نصوص بابلية وأوجارية وحيثية مقدسة، قدمها كل من لابات، كاكوه، سِزْنيسَر وفييرا، دار النشر فيَّار ودينويل (سلسلة: كنوز الإنسانية الروحية)، باريس، ١٩٧٠م، ص٣٧٥.

بين المؤمنين بيـهوه والمؤمنين بإيـل، ثم جعل العـبريون الذين جـاءوا إلى بلاد كنعان هوية إلهـهم مشابهة لآلهـة أصحاب البلاد الأصليين حـتى أنهم أخذوا اسمه وهو «إيل» الذى يجمع على «إيلوهيم»(١).

كما نجد أن صفات الآلهة والطبيعة والتاريخ تختلط أحيانًا. فمثل «بعل» عند الكنعـانيين، يحمل يهـوه لقب «الله . . أبو اليتـامى وقاضى الأرامل» (المزامـير ٦٨/ ٥)؛ ككل آلهة الخصوبة، فهو الذى يعطى «القمح والخبز والزيت» (هوشع ٢ : ٨) ومثل بـعل، إله المجد أرعد (المـزامير ٢٩/ ٣- ٤). ومـثل الإله - إيل أوجاريت، يرتقى إله العهد القديم العـرش ويقرر فى وسط ساحة الآلهة: «الله يترأس ساحة قضائه، وعلى القضاة يصدر حكمًا» (المزامير ٨٢/ ١).

ولا يعتـبر هذا الدمج مفـاجئًا، إذ إن الـعبرانيين قـد أخذوا - خلال عـملية تحضـرهم فى بلاد كنعان - «اللغـة الكنعانية» مكان لهـجتهـم؛ وقد تعلم هؤلاء البدو من الكنعانيين الكتابة الهجائية التى أتاحت لهم الانتقال من التراث الشفاهى إلى الكتاب فى القرن العـاشر قبل الميلاد. وقد تعلم البدو العـبريون كذلك من الكنعانيين الزراعـة، وأصبحت طريقة حيـاتهم متشابهة أكـثر فأكثر حـتى كثرت الزيجات المخـتلطة. ويشهد بذلك لعنات كـبار الكهنة بداية من القرن العـاشر: **«وليكن كنعان ملعونًا وليكن عبد العبيد لإخوته» (سفر التكوين ٩/ ٢٥)**(*).

---

(١) ف. ألبرايت: من العصر الحـجرى للعالم المسيحى. الوحدانيـة والتطور التاريخى، دار النشر بايوه، باريس، ١٩٥١م، ص ١٥٦.

(*) القصة كما جاءت فى سفر التكوين، الإصحاح التاسع:

لعن كنعان ومباركة سام

واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرمًا، وشرب من الخمـر فسكر وتعرى داخل خيمته. فشاهد حام أبو الكنعانيين عرى أبيـه، فخرج وأخبر أخويه الـذين كانا خارجًا فأخذ سـام ويافث رداءً ووضعاه على أكتافهما ومـشيا القهقرى إلى داخل الخيمة وسـترا عرى أبيهما ممن غير أن يستديرا بوجـهيهما نحوه فيبـصرا عريه. وعندما أفاق نوح من سكره وعلم مـا فعله به ابنه الصغير قـال: ليكن كنعان ملعونًا وليكن عبـد العبيد لاخـوته. ثم قال: تبارك الله إله سام ولـيكن كنعان عبدًا له. ليـوسع الله ليافث فيسكن فى خيام سام. وليكن كنعان عبدًا له» سفر التكوين ٩ : ٢٠-٢٧.

ويلاحظ القارئ أن نوح لعن أبناء حام الكـنعانيين، وليس حام نفسه على فـعله (كما يلاحظ بالطبع سكر نوح). وأصبح لعن الكنعانيين ومباركة السامـيين أسطورة جديدة من أساطير التراث اليهودى، تضاف لأسطورة الشعب المختار، وأسطورة أرض الميعاد.

يرجع تنظيم ذلك لأوامر إلهية، فجاء فى سفر التكوين «وبارك الرب إبراهيم فى كل شيء، وقال إبراهيم لرئيس عبيده: . . فاستحلفك بالرب إله السماء والأرض أن لا تأخذ لابنى زوجة من بنات الكنعانيين الذين أنا مقيم وسطهم». (٢٤: ٢ - ٣).

ثم تكرر ذلك فى سفر الخروج «إياكم أن تعقدوا معاهدة مع سكان الأرض لأنهم حين يعبدون إلهتهم مشركين ويذبحون لهم، يدعونكم فتأكلون من ذبيحتهم وتزوجون بنيكم من بناتهم، فيغوين بعبادة آلهتهن ويجعلن بنيكم يغوون أيضًا بعبادة آلهتهن» (٣٤: ١٥ - ١٦).

ما الذى يهمنا إذن فى أن يكون بطل قصة عائلة إبراهيم أسطوريا أو حقيقيًا؟ إن الإيمان لا يتوقف على مثل هذا الاختيار الذى قد يؤكده أو يُلْغيه أى كشف أثرى. إن الإيمان هو اليقين فى أن الإنسان يمكن أن يؤدى - فى عالمه الأرضى - «أعمال اللانهائى» كما كتب كيركجارد فى تأمله الرائع حول «إبراهيم فارس الإيمان»[1]، وانطلاقًا من هذا اليقين، تأتى إرادة أن نجعل من أفعالنا إجابة على دعوة الله وفقًا لنموذج ونمط تضحية إبراهيم.

وبهذا يتحرر البحث التاريخى من أى مفهوم وضْعى للدين (اليهودى أو المسيحى أو الإسلامى) الذى قد يفصل الإيمان عن الفعل، وينسى أن الإيمان هو الإرادة والعمل وليس القول فقط، وليس الخضوع للأحوال السارية - أى الأمر الواقع - ولكنه على العكس من ذلك خضوع لدعوة الله لننزع أنفسنا من الأمر الواقع ونتخطاه لنخلق مستقبلاً ذا مظهر إنسانى وإلهى[2].

---

(١) سورين كيركجارد: «خوف وزلزلة»، الأعمال الكاملة، ١٩٧٢م ص ١٠٤ - ١٤٥.

(٢) وليست هذه الملحوظات التمهيدية إلاَّ «استطرادات لاهوتية». فهى ضرورية مطلقًا فى أى تاريخ لفلسطين. لكى لا نخلط بين البحث العلمى وانتهاك الحرمات، وسواء كان النص التوراتى بلا «أساس» تاريخى أو حتى متناقضًا تناقضًا تامًا مع الآثار، فإنه لا علاقة له بالإيمان، اليهودى أو المسيحى أو الإسلامى. ولكى نحرر البحث العلمى، فإن الأمر يتعلق فقط بعدم الخلط بين الواقع التاريخى وحقيقة الإيمان.

وقد أثبتت التـأريخات التالية - كـما يذكر الأب دى ڤو – أن «الإسرائيليين عندما وصلوا فى القرن الثالث عشر قبـل ميلاد المسيح إلى أريحا، لم يستولوا عليها بحرب، لأنها لم تكن موجودة فى ذلك العصر»[1].

وكذلك كان الأمر بالنسبة لسقـوط عاى على يد يشوع - سفر يشوع (٨ : ١ - ٢٩) وتنتهى قصة غزو المدينة بالعبارة التقليدية: **رجع المحاربون الإسرائيليون إلى عاى وقـتلوا كل من فيها، فكان جـميع من قتل فى ذلك اليوم من رجـال ونساء اثنى عـشـر ألفًا وهم جـمـيع أهل عـاى... أما البـهـائم وغنائم المدينة فـقـد نهـبهـا الإسرائيليـون لأنفسـهم بمقتضى أمـر الرب الذى أصدره إلى يشـوع، وهكذا أحرق يشوع عاى وحولها إلى تل خراب أبدى إلى هذا اليوم.**

يقول الأب ڤو: «من كل قـصص الغزو، تعـتبـر هذه القصـة هى الأكثـر تفصـيلاً، حيث لا تحـتويي على أى عنصـر خارق وتبدو كـما لو كانت أكـثر واقعـية. ولسـوء الحظ فقـد أنكرها علم الآثار . . . ولم يكن هناك مـدينة فى عاى لحظة وصول الإسرائيليين إليها، بل كان هناك أطلال قديمة ترجع إلى ألف ومائتى عام»[2].

وتتفوق نزاهة المؤرخ وعـالم الآثار فى هذا الكتاب الرائع للأب دى ڤو على الأمل الشديد فى أن نُشْهِد التاريخ على صحة القصة التوراتية.

كما نجد مـشاعر مماثلة عند غالبية من أرخـوا لفلسطين. فهذا إيمانويل أناتى يكتب على سبيل المثال: «من المدهش أننا لا نجد فى أى نص مصرى أثرًا ما أو حتى أى إشارة إلى إقامة العبريين (اليهود) الطويلة هذه فى بلاد الفراعنة»[3].

وقد يكون ممكنًا كـذلك أن نشعر بنفس «الدهشة»، إذا لاحظـنا عدم وجود أثر خارج العهد القديم، للخروج من مصـر الذى غرقت خلاله جيوش فرعون

---

(١) ر.دى ڤو: «تاريخ إسرائيل القديم»، دار النشر جابالدا، ١٩٧١م، ص ٥٦٢.

(٢) نفسه ص ٥٦٥.

(٣) سبق ذكره ص ٣٨٩.

بعد معجزة عبور العبريين الذين انشق أمامهم البحر. كما لا نجد أى إشارة فى النصوص المصرية لأى حدث مهم مثل فناء جيش ما، بينما لا يوجد فى تقارير حرس الحدود فى تلك الفترة ذكر لعبور قبائل بدوية صغيرة[(١)].

لماذا تملكت «أناتى» الدهشة؟

ميلاد الوحدانية فى «الهلال الخصيب» ومصر

تقول الأناشيد الهندية «ڤيداس- Védas» التى تعتبر رائدة الاتجاه إلى الوحدانية عن ڤارونا الإله الأعظم: «إنه واحد وأسماؤه كثيرة».

ولم يكن العبرانيون أول من ابتدأ الوحدانية، فخلال قرون من الشِّرك القبلى لم يستبعدوا وجود آلهة أخرى، ولكنهم اعتبروا إلههم هو الأقوى والضامن للنصر، ومن المستحيل أن نستوثق من صحة قصص التوراة أو أباطرة الصين البدائية الأسطورية أو من «پول ڤوه Pual Vuh» معبود الهنود الأمريكيين. أما فى حالة إسرائيل، فقد اعتُبرت الأسطورة تاريخًا لا سيما منذ أن وضعت الكنيسة التاريخية يدها على التراث العبرى، واعتبرت نفسها الوريث الحقيقى لإسرائيل. وإلى جانب ذلك، فإن أى قراءة للتوراة نفسها تظهر ما بها من تناقض.

ولم يكن اليهود إلا جزءًا من الهجرة الأرامية: «كان أبى أراميا تائهًا، ثم انحدر إلى مصر وتغرب هناك ومعه نفر قليل، ولكنه أصبح هناك أمة كبيرة» (سفر التثنية، ٢٦/ ٥)، بينما يجعل سفر التكوين (٢٩/٥) من «لابان بن ناحور الآرامى» خال وصهر يعقوب. كما يتحدث النبى حزقيال عن القدس قائلاً: «وقل هذا ما يعلنه السيد الرب لأورشليم: أصلك ومولدك من أرض الكنعانيين.

---

(١) والمثال هو: بردية أناستازى، رقم ٦، ٥١ - ٦١ والمذكورة فى «نصوص من الشرق الأوسط القديم وتاريخ إسرائيل الذى كتبه بريإند وسو، دار النشر، دى سيرف، ١٩٧٧م، ص ٦٨ وكذلك فى «نصوص من الكتاب المقدس ومن الشرق» دار النشر ديلاشو ونيسليه، نيوشاتيل، ١٩٦١م، ص٤٢.

أبوك أمورى وأمك حثية» (سفر حزقيال، ١٦: ٣). وقد امتد هذا الخليط العرقى الذى يستبعد المحافظة على عرق واحد ليتحول إلى خليط ثقافى. ولم يكن الإله الذى مجده اليهـود مختلفًا عن «بعل» شعوب «الهـلال الخصيب» الأخرى، تلك التى وُضعت فيها بذرة فكرة التوحيد منذ وقت طويل.

ولم يظهر مـا نسميه بالتوراة الـكنعانية إلا اعتبـارًا من عام ١٩٢٩م مع أول الإصدارات عن اكتشاف «رازشامرا Raz Shamra» لا سيما بعد اكـتشاف بعثة باولو ماثياى الإيطالية لسبعة عشر ألف لوحة فى قصر «إلبا» بسوريا [١].

ويتضح بـجلاء فى هذه التوراة أن الكـنعانيين (بما فيـهم اليهـود) استـقبلوا بحماسـة شكل الوحدانية الجديد الذى وضعــه إخناتون، والذى أصبح الرجوع إليه ممكنًا بعد اكتشاف لوحات تـل العمارنة فى مصر. ويبدو المزمور رقم ١٠٤ كما لو كـان مستوحى بكامله من «نشيد الـشمس» لإخناتون الذى محى من على واجهـات المعابد جمع كلمـة «إله». وها نحن نجده يقول فى نشـيده إلى آتون فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، أو قرن قبله: «أنت الواحد. خَلَقْتَ كل موجود».

وقد ذُكـر فى قصيدة الخلـق البابلية كذلك مـا يلى: «إذا كان كل البشـر قد تفرقوا بشأن الآلهة فإننا نقـول: «إنه هو إلهنا بكل الأسماء التى سميناها إياه». ثم احتكر التـراث الكهنوتى العبـرى هذا التطور الناضج للوحدانيـة من العراق إلى مصر، وكتب التـاريخ بروح عرقية ضيقة، حـيث جعل من فلسطين مركز الخلق، ويردد سفر التثنية (١٢/ ٥، ١٢/ ٢١، ١٦/ ٢) بشكل مرهق أن القدس هى «المكان الذى اختاره الرب إلهكم ليضع عليه اسمه» رغم أن «يشوع» يضعه على جبل عيبال (سفر يشوع، الإصحاح ٨: ٣٠-٣٥) وإرمياء فى شيلوه (سفر إرميا الإصحاح: ٧: ١٢).

ويطرح نشيد الخروج السؤال الآتى:

فمن مثلك يا رب بين كل الآلهة؟ (سفر الخروج الإصحاح: ١٥: ١١).

---

(١) هـ. أ. ديل ميديكو: التوراة الكنعانية المكتشفة فى نصوص راز شامرا، باريس، بايوه، ١٩٥٠م.

الوعد

يستمد موضوع «تخصيص بلد» التوراتى، أصله من «الوعد الأبوى» من الله لإبراهيم وفقًا لسفر التكوين:

وقال الرب لأبرام: أترك أرضك وعشيرتك وبيت أبيك، واذهب إلى الأرض التى أريك فأجعل منك أمة كبيرة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة، وأبارك مباركيك وألعن لاغيك وتتبارك فيك جميع أمم الأرض» سفر التكوين الأصحاح ١٢: ١-٣.

فعندما تابع «ألبير دى بورى- Albert de Bury» الأستاذ فى جامعة چنيف البروتستانتية فى أطروحته المكونة من مجلدين، أبحاث كبار المفسرين المعاصرين المنشورة عن تاريخ إسرائيل بين عامى ١٩٥٤م و١٩٧١م أمثال «ألبريخت أت - Albrecht Att» و«مارتين نوث - Martin Noth» و«چيرهارد ڤون راد- Gerhard Von Rad» و«فرانسواز سميث - Fransoise Smith» و«لو. ب دى ڤو - Le P.de Vaux» توصل إلى النتائج التالية:

اعتبر ويعتبر غالبية المفسرين «الوعد الإلهى» فى تعبيره التقليدى كما جاء فى سفر التكوين «وقال الرب لإبرام بعد أن اعتزل عنه لوط: ارفع عينيك وتلفت حولك من الموضع الذى أنت فيه شمالاً وجنوبا شرقاً وغربًا، فإن هذه الأرض التى تراها سأعطيها لك ولذريتك إلى الأبد» الأصحاح ١٣ : ١٤-١٥، «فى ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاق قائلاً: لنسلك أعطى هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرت» الإصحاح ١٥: ١٨، كنوع من إعطاء الشرعية بعد الحدث للغزو الإسرائيلى لفلسطين أو بتحديد أكثر لجعلها امتداداً للسيادة الإسرائيلية خلال حكم داود. وبكلمات أخرى، فإن الوعد يمكن أن يكون قد أُدخل فى القصص الأبوية ليجعل من «ملحمة الأجداد» مقدمة وبشارة للعصر الذهبى مع داود وسليمان[١].

---

(١) أ.دى بورى: الوعد الإلهى وأسطورة العبادة فى قصة يعقوب، باريس ، چس جابالدا وَسِى، ١٩٧٥م.

ونستطيع الآن أن نحصر بشكل مختصر أصول الوعد الأبوى:

١- لقد صدر الوعد بالأرض الذى يعتبر وعدًا بالتحضر والمدنية أولاً لجماعات من البدو الخاضعين لحياة التنقل حسب المراعى، والذين يرغبون فى الاستقرار فى مناطق مأهولة، وبهذا الشكل يعتبر الوعد جزءًا من التراث الدينى والقصص لمجموعات قبلية مختلفة .

٢- لم يكن هدف الوعد البدوى هو الغزو السياسى والعسكرى لمنطقة من المناطق أو لبلد من البلاد.

٣- وعندما تجمعت القبائل البدوية التى استقرت مع قبائل أخرى لتكوّن «شعب إسرائيل»، أخذت الوعود القديمة بُعدًا جديدًا- فبَعد أن حققوا هدف الاستقرار، أخذ الوعد بُعْدًا سياسيًا وعسكريًا و«قوميًا»، وكان أحد المعطيات الأساسية فى البلاد التى يعيش فيها البدو الرحَّل هو أن يجدوا أرضًا بعد فترة الترحال. ومن هنا نستطيع أن نتكلم عن عالمية أساطير «الوعد» التى يوضع فى إطارها الوعد الخاص بأرض كنعان.

ولكى ندرك ذلك فى الشرق الأوسط، من العراق إلى مصر مرورًا بالحثيين، فإن جميع الشعوب قد أخذت وعودًا مشابهة.

وككل أَبْعُل (آلهة) الشعوب الرحالة، فإن أى إله يَعدُ الراعى بالأرض عند عودته، يرسم له فيها مثل كل آلهة المنطقة الحدود. ويرتبط استقرار القبائل البدو أو الرحل فى الأرض عند جميع الشعوب -خصوصًا فى الشرق الأوسط- بالسيطرة على الأرض التى وعدهم بها إلههم.

ففى مصر وعلى مسلة الكرنك التى أقامها تحتمس الثالث بين عامى ١٤٨٠م و١٤٧٥م قبل الميلاد ليحتفل بالانتصارات التى أحرزها على طريق غزة، مجيدو وقادش حتى نهر الفرات، نجد الإله يقول «سأعطيك - بقدرى- الأرض طولاً وعرضًا. لقد أتيت وسأجعلك تجتاح أرض الغرب».

أما فى العراق وفى اللوحة السادسة من قصيدة الخلق البابلية، التى قابلناها نجد الإله «ماردوك» يعطى لكلٍّ نصيبه» (آية ٤٦) ولكى يرسخ العهد، أمر ببناء بابل ومعبدها.

كما نجد بين مصر والعراق، الحثيين يمجدون أرينًا، إلهة الشمس قائلين: «تحرسين أمن السموات والأرض وتقيمين حدود البلاد»

فإذا لم يكن اليهود قد تلقوا وعدًا مماثلاً، فإنهم بذلك قد يمثلون استثناءً!

إله القوة والمعجزة

ليس هذا الإله إلهًا إلا لأنه يفى بعهده. ويلجأ لكل نوع من المعجزات ليحقق ذلك، ولا يثبت ربوبيته إلا بذلك. فقد جاء فى بداية سفر الخروج أن «فآمن الشعب» (الخروج ٤/ ٣١) بعدأن أظهر الله معجزتين «لصالح بنى إسرائيل».

فعند خروجهم من مصر، أمد الرب لهم يده و«انفلق البحر» (الخروج ١٤/ ٢٢)، أما بنو إسرائيل فقد ساروا فوق أرض يابسة وسط مياه البحر وكانت المياه كسورين عن يمينهم وعن شمالهم، وارتدت المياه وأغرقت المركبات والفرسان وكل جيش فرعون الذى لحق بهم إلى البحر» (١٤/ ٢٨).

ويوضح لنا علم الآثار أحيانًا «سياق» هذه القصص الملحمية: وهذا يؤكد- وهو حقيقى من وجهة نظر التوراة- أن التراث الشفاهى والأساطير ترتكز بعامة على نسيج تاريخى واقعى. أضف إلى ذلك أن علم الآثار غالبًا ما ينكر شطحات سفر «يشوع- Josué»، فعلى سبيل المثال: أريحا وعاى- كما رأينا- لم تعد أى منهما موجودة عندما دمرها يشوع.

وعندما وضعت «كاتلين كينيون- Katheleen Kenyon» قائمة بأبحاثها الأثرية، أكدت ما يلى: «إن إحدى أهم الصعوبات التى تواجهنا ونحن نضع تأريخًا زمنيًا لدخول الإسرائيليين (أبناء إسرائيل)، إنه لا يوجد شىء فى أى

موقع يجعلنا نقول أن هناك دليلاً ماديًا على وصول شعب جديد». وتخلص الباحثة إلى أن «علينا القبول بأن مجموعات بنى إسرائيل التى وصلت إلى هذا المكان، كانت فى أساسها من البدو الرحل الذين يأخذون أمتعة من سبقوهم على هذه الأرض عندما يستقرون عليها. أما الثقافة الفلسطينية فكانت فى أساسها كنعانية»[1].

وهكذا ولد مفهوم التاريخ الذى تشكل خلال قرون من الوعد والقوة (القاهرة)، والذى شكّله السحرة الذين يتباهون بانتصارات إله أقوى من آلهة الجماعات القبلية الأخرى.

سيوضح سفر الأنبياء أن الأحداث المأوساوية تقع بتقدير إلهى، وأنه عندما غزت الإمبراطوريات قبائل بنى إسرائيل وعذبتهم، كان الخطأ يرجع إلى كفرهم وعصيانهم الله. وطبقًا لوجهة النظر هذه، فإن حكّام إمبراطوريات الشرق كانوا أدوات ضرورية لتحقيق أهداف «يهوه»: فكان ملك الأشوريين القوى المخيف «قضيب غضبى الحاملين معهم عصا سخطى». سفر إشعياء (١٠/٥)؛ ثم لعب الملك البابلى الجديد نبوخذ ناصر دوره فى هذه المأساة «والآن قد عهدت بجميع هذه الأراضى إلى نبوخذ ناصر ملك بابل عبدى: فتستبعد له ولابنه ولحفيده جميع أمم الأرض.. ولكن إن أبت أية أمة أو مملكة الاستعباد لنبوخذ ناصر ملك بابل.. فإنى أعاقبها بالسيف والجوع والوباء إلى أن أبيدهم بيده» سفر أرميا (٢٧: ٦- ٨). وعلى العكس من ذلك، أصبح «قورش- Cyrus» ملك بلاد فارس، منفذًا أمينًا (لأوامر) يهوه ومتمتعًا بحمايته: «شدّدْتُك مع أنك لم تعرفنى حتى يدرك الناس من مشرق الشمس ومغربها أنى أنا هو الرب وليس هناك آخر» سفر إشعياء (٤٥: ٥، ٦)، ويقول كذلك: «أنا أقمت كورُش ليجرى العدل وأنا أهد طرقه كلها فيبنى مدينتى ويطلق سراح أسراى» سفر إشعياء (٤٥: ١٣).

---

(١) كاتلين كينيون: الحمواربيون والكنعايون محاضرات سكويتش فى الأكاديمية البريطانية ١٩٦٣م أكسفورد، ١٩٦٦م ص٥.

وقد جعلت الانتصارات والإبادات التى حققها موسى ويشوع من إسرائيل- ومن الدولة الصهيونية التى تدعى أنها وريثتها- شعبًا مختلفًا عن الشعوب الأخرى. وقد أدى مفهوم «الشعب المختار» بالضرورة إلى رفض الآخر.

ويتأكد ذلك أحيانًا على مستوى العلاقات الإنسانية، ولكنه يتأكد أكثر على مستوى العلاقات الدولية، حيث استطاعت إسرائيل باسم هذه الهيمنة الناتجة عن الاختيار الإلهى أن ترفض أكثر من مائتى مرة منذ نشأتها قرارات الأمم المتحدة، حتى تلك التى حازت الإجماع؛ وليست هذه القرارات إلا قوانين إنسانية بالقدر الذى تعتبر فيه مطالب الفلسطينيين أصحاب البلاد الأصليين.

أما على المستوى الشخصى، فإن الانتماء إلى هذه العرقية الخاصة، كان يعطى لأقل الناس مكانة خاصة ويكسبه النبالة. وقد كتب إيلى فيزل (الحائز على جائزة نوبل) ذلك دون أن يرد عليه أحد، وتجرأ على تأكيد ما يلى:

«يعتبر اليهودى أقرب إلى الله من أى إنسان آخر»[١].

«كتاب صلوات الحقد» وهو عنوان كتاب لأحد هؤلاء الذى يدعون إلى البصق على مقابر كل الشعوب الأخرى على طريقة الأمريكى «جولد هاجن- Gold hagen» الذى اعتبر كل ألمانى نازيًا[٢] أو «برنارد هنرى ليفى- Bernard Henri Lévy» الذى وصل إلى نتيجة مؤداها:

«تشهد الثقافة الفرنسية- من ڤولتير إلى بيجى.. بتاريخنا فى الحقارة»[٣][*].

النتائج التاريخية لأسطورة «الشعب المختار»

يؤدى مفهوم الملكية المطلقة، ملكية الله أولاً، ثم الملوك المتعلقة بالأولى باعتبارهم كهنة وملوك الرب، إلى إقصائية راديكالية، أو حتى إلى نوع من الكره الإلهى. ويعتبر «يهوه»، فى المفهوم الوثنى والقبلى للعبرانيين الأوائل،

---

(١) إيلى فيزل: الاحتفال التلمودى، باريس، سوى ١٩٩٠م.

(٢) د. جولد هاجن: جلادو هتلر المتطوعون، باريس.

(٣) ب. هـ. ليفى: أيديولوچيات فرنسية، ص ٦١.

(*) قال ذلك فى معرض توبيخه للشعب الفرنسى بتهمة أنهم خانوا اليهود وتواطئوا مع هتلر.

إلهًا «غيورًا»، فهو- فحسب- فى هذا المفهوم الذى طاله الشرك، أقوى الآلهة، وسيمنح النصر للقبائل التى يحميها والتى جعل منها «الشعب المختار» وفرض عليها حق، بل واجب إبادة كل الشعوب التى لا تشاركهم الإيمان به.

وتعتبر فكرة «الشعب المختار» أكثر الأفكار دموية فى التاريخ. فقد أوحت- بعد تطعيمها بمعارك يشوع الأسطورية - إلى الطّهريين(*) البروتستانت الإنجليز الذين وصلوا إلى أمريكا، باستئصال الهنود، وجعلت أحد البابوات يتساءل: ما إذا كان الهنود يتمتعون بروح كالبيض. ثم قسم أراضيهم بين إسبانيا والبرتغال،فهذه الفكرة إذن أساس الكثير من أنماط الاستعمار.

وقد جعلت كنيسة القديس بولس بروما من نفسها وريثة لهذا «الاختيار الإلهى»، واعتبرت تدمير وذبح ملايين الهنود نوعًا من التنصير. نذكر هنا مثال البابا سانت دومانج عام ١٩٩٢م، الذى أثنى- فى «كومبستيل- Compostelle»- على أوروبا (المسيحية بطبيعتها) لـ «دورها الحضارى» فى العالم- وباسم هذا المبدأ كذلك، مارست الولايات المتحدة السياسة الاستعمارية، وتحاول إخضاع العالم لقوانينها تحت ذريعة «القدَر المحتوم أو القدر المبين» لـ«الشعب المختار» الجديد.

وعندما وصلت جماعة من المهاجرين الإنجليز من البيوريتانز المتزمتين الهاربين من الاضطهاد إلى «ماساشوستس- Massachusetts»، اعتبروا أن هدفهم هو إقامة «أرض ميعاد جديدة». ثم استقر هؤلاء المستعمرون - الذين سيكوِّن أبناؤهم فيما بعد الولايات المتحدة- فى بلد لم يكن لهم فيها أبدًا تاريخ، واستندوا إلى الأسطورة التالية: **«إن رحيلهم من انجلترا يعتبر «خروجًا» توراتيًا جديدًا»**.

كانت أمريكا هى إذن «أرض الميعاد» لينشئوا عليها مملكة الله، وقد تأولوا

(*) طائفة من البروتستانت المتشددين، هاجروا من انجلترا إلى هولندا، ثم من هولندا وانجلترا إلى أمريكا: الأرض الجديدة التي اعتبروها أرض الميعاد. ومن يريد الاستزادة، يمكنه قراءة «المسيح اليهودى» للكاتب الليبرالى رضا هلال، و«أرض الميعاد والدولة الصليبية» والتر ماكدوجال، ترجمة رضا هلال.

هذه المهمة الإلهيــة ليبرروا مطاردتهم للهنود وسرقة أرضهــم، حسب ما تُعلمه قصة يشوع التــوراتية السابقة وما قام به من «إبادات» مــقدسة، وها هو أحدهم يكتب ما يلى:

«بديهى أن الله دعــا المستــعمـرين للحـرب. والهنود مثلهــم مثل قـبائل العــمالقـة والفلسطينيين السابقين الذين تحالفوا مع آخرين ضد إسرائيل..»

- انظر ترومان: طُهْرِيُّو ماساشوستس: من مصر إلى أرض الميعاد «اليهودية» المجلد السادس عشر. جزء٢، ١٩٦٧م.

وعندئذ أصبحت «أرض الميعاد» أرضَ غزو. ولم تتعارض ممارسة الطرد والتدمير والقتل مع المفـهوم الدينى، ذلك أن الغنائم والثروات كالنصـر، يعتبران بالنسـبة لهم دليلاً على مباركة إلهية.

ويحكى لنا «توكـڤـيل- Tocqueville» أن مــشرعى ولاية كــونيكتــيكوت الأمريكية فى أعــوام ١٦٤٠م- ١٦٥٠م أصدروا قانون العقــوبات التالى، أخذاً من «الكتب المقدسة»:

«يحكم بالموت على كل إنسان يعبد إلهًا غير الرب».

وعندمــا أعلــنوا اســتــقــلالهم عن انجلتــرا، أعــطى الأب المؤسِّس، چورچ واشنطن، فى خطابه الافتتاحى كرئيس للولايات المتــحدة، الصيغة الكاملة التى ستــصبح المبــدأ الذى يحكم الولايات المتحــدة حتى أيامنا هذه. يــقول چورچ واشنطن:

«ليس هناك أى شعب يلتزم أكثر من شعــب الولايات المتحدة بشكر وعبادة «اليد الخفــية» التى تتحكــم فى شئون الناس. وتبــدو كل خطوة وكأنها تـقودهم إلى طريق الاستقلال الوطنى، وكأنها تحمل علامة تدخل العناية الإلهية».

وقد ابتكر آدم سميث تعــبير «اليد الخفية». هذا ليتوج به نــظريته الاقتصادية، حيث إنه إذا تبع كل فرد منفعته الخاصة، فإن المنفعة العامة ستحقق بالتبع. ولن يحقق هذا التناسقَ بينهما إلا «يدٌ خفية».

أما خليفة چورچ واشنطن «چون آدمز – John Adams » فقد كتب فى عام ١٧٦٥م ما يلى:

«لن أكف عن الاعتقاد بأن تأسيس أمريكا ليس إلا إرادة العناية الإلهية لتعليم وتحرير قطاعٍ كبير من البشرية التى ما زالت خاضعة للرق»، ويقول كذلك: **«لقد أوجدت العناية الإلهية أمريكا لتكون مسرحًا يحقق فيه الإنسان مكانته الخاصة»** (السيرة الذاتية، المجلد الأول، ص ٢٨٢).

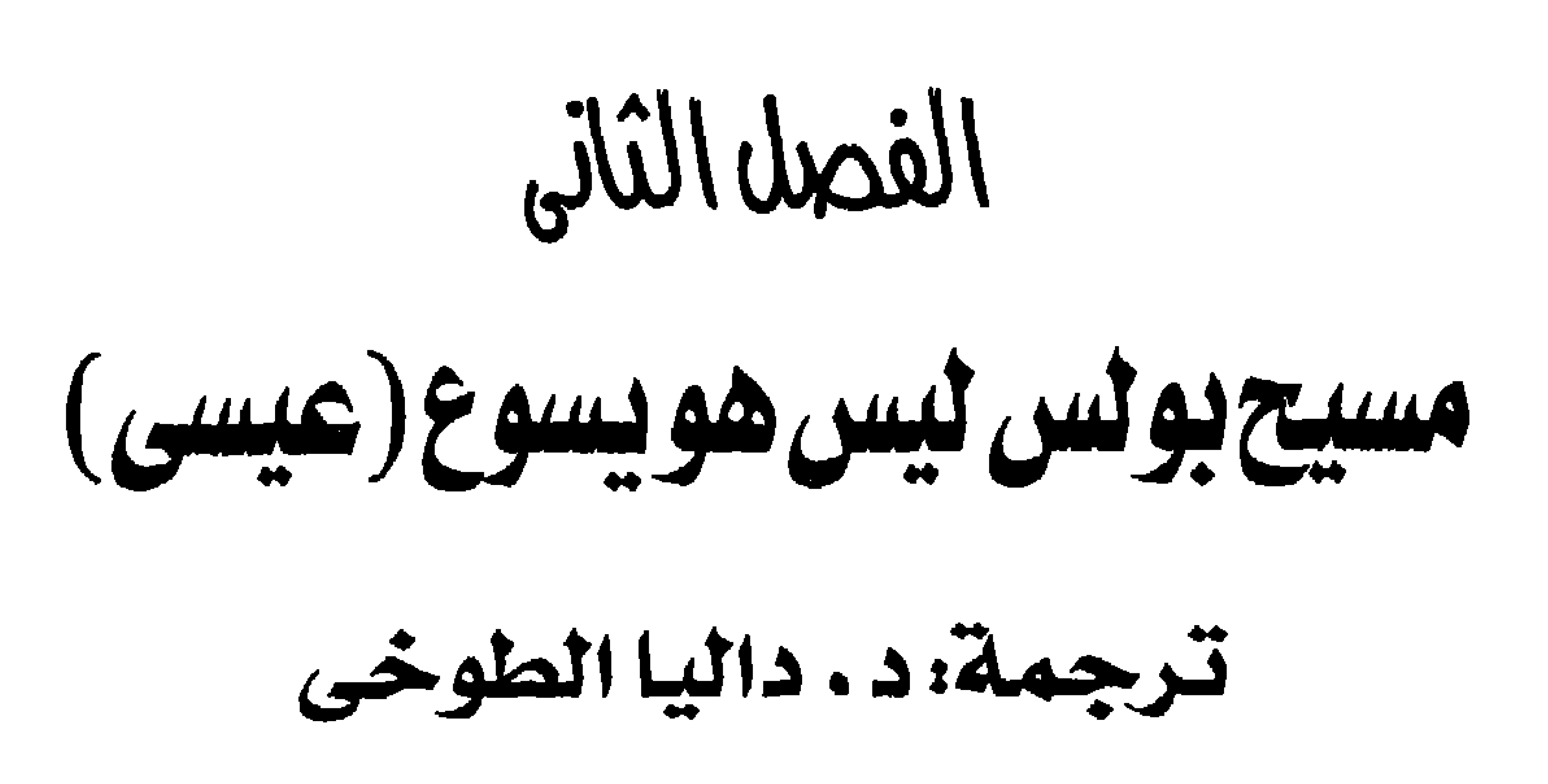
أما الكاتب «هيرمان ميلڤيل -Herman Meliville» فى القرن التاسع عشر فيقول: «نحن – الأمريكيون– شعب خاص، شعب مختار، إسرائيل عصرنا، نقود سفينة الحريات» (أمريكا كحضارة ، ص٨٩٣).

وسيكون ذلك من الآن فصاعدًا أحد الثوابت فى سياسة **«الشعب المختار الجديد»: «الله والدولار هما غذاء السلطة».**

ولم يكف أوائل منظرى الاتحاد مثل «دانا المبجل – Révérand Dana» عن الإشارة إلى هذا النسب الإلهى للدولة الجديدة حيث يقول: «إن شكل الدولة الوحيد الذى أقامته الرعاية الإلهية بشكل ظاهر هو دولة العبرانيين. إنها جمهورية اتحادية مع «يهوه» فى قمّته» (دانا: الأيمان ص ١٧).

وسنجد جيفرسون، الرئيس الثالث للولايات المتحدة، يصرح هو الآخر أن شعبه هو **«شعب الله المختار»** (ملاحظات حول ولاية فيرچينيا، الجزء التاسع عشر) وفى نفس الإطار، وبعد قرنين من الزمان، قال الرئيس نيكسون: **«إن الله مع أمريكا، ويريد أن تقود العالم»**.

وهكذا سيبرر أكثر رؤساء الولايات المتحدة عمليات النهب التى سيقومون بها. ويعد التناقض بين الإيمان والممارسة العملية أحد ثوابت السياسة الأمريكية. فها هو الرئيس ماكنيلى يغزو الفيليبين لكى «يسمو بهم، ويحضرهم ويُنَصِّرَهم».


الفصل الثانى
مسيح بولس ليس هو يسوع (عيسى)
ترجمة: د. داليا الطوخى

لم ترد إلينا عن حياة يسوع سوى بعض المعلومات التى نقلتها بعض المصادر المسيحية. أما المصادر غير المسيحية فلم تذكر شيئًا عن حياته سوى ما ذكره «سويتون» أحد أكبر مؤرخى روما، حوالى عام ١٠٠ بعد الميلاد عن العذاب الذى تعرض له شخص يدعى «خريستوس» وهو اسم يونانى أطلق على المسيح. إننا نادرًا ما نتساءل عن التسلسل التاريخى لكتابة النصوص المقدسة ذاتها مفترضين منذ البداية أن الأناجيل الأربعة قد دونت جميعها فى عهد المسيح، وأن أعمال الرسل قد دونها القديس لوقا أحد تلاميذ المسيح، وأن رسائل بولس كتبت بعد الأناجيل لأن بولس قد ظهر بعد المسيح.

بيد أن الصورة التى رسمها المفسرون المسيحيون منذ القرن السابع عشر كانت مختلفة تمامًا. فالكنسية تضفى نوعًا من الغموض على هذه التساؤلات وتتجنب القول بأن تدوين رسائل بولس سبق تدوين الأناجيل الأربعة المقدسة.

إن التسلسل التاريخى الذى يتفق عليه اليوم المفسرون المسيحيون هو الآتى:

أولاً: رسائل بولس وتشمل:

- رسائل بولس الأولى إلى مؤمنى تسالونيكى عام ٥٠م.
- رسائل بولس إلى مؤمنى رومية وكورنثوس وتسالونيكى عام ٥٧م.
- رسالة بولس الأخيرة عام ٦٣م.

ثانيًا: إنجيل مرقس عام ٦٤م والذى كتبه يوحنا مرقس الذى لم يكن معاصرًا ليسوع، بيد أنه كان من المقربين للرسول بطرس. فطبقًا لما روته الأحاديث الآبائية، فإن القديس مرقس قد قام بتدوين التعاليم التى نشرها بطرس فى

روما. وقد كــان مرافقًا للقــديس بولس بعض الوقت ثم افترقــا وفى النهاية تم التصالح بينهما.

ثالثًا: أعمال الرسل بعد عام ٦٤م. وقد كتـبها لوقا الذى كان يعمل كطبيب يونانى فى أنطاكية، وكان من تلاميذ بولس وأسس كنيسة فى هذه المدينة.

رابعًا: إنجيل لوقا ما بين عام ٨٠ و٩٠م.

خامسًا: إنجيل متى ما بين عام ٨٠ و٩٠م. وقد اختفت النسخة الأصلية من هذا الإنجيل منـذ بداية ظهوره ما بين عــام ٤٠ و٥٠م. وحتى آباء الكنيـسة لا يمتلكون أى نسخة منه، والتى كانت فى أغلب الظن مكتوبة باللغة الآرامية. أما النسخة اليونانية فقد ظهرت بعد ذلك فى عام ٨٠م.

ويعتقد أن إنجيل مرقس ومتى كان مـصدرهما مشترك وهو المصدر اليونانى، غير أن متى قد استعان أيضًا بأعمال القديس لوقا. أما الأصل الآرامى فقد كان موجه للشعب اليهودى.

سادسًا: إنجيل يوحنا وقد ظهر فى أواخر القرن الأول الميلادى(١).

وفى صعيد مصر عام ١٩٥٤م، تم اكتشاف «أفكار يسوع» مجمعه فى كتاب يطلق عليه – دون وجـه حق – «إنجيل توما». فـهو لا يروى حيــاة يسوع، بل يجمــع فقط أقواله. وقــد دفنه بعض تلامـيذه فى باطن الأرض حتــى لا يبدده المعلمون الجدد.

---

(١) طبقًا للتسلسل التــاريخى لإنجيل أورشليم، والكتاب المقدس المجمع المتفق عليه مع مـقابلته بالأناجيل المحرفة غـير المعترف بهــا من قبل الكنيسـة، وتعليق الأب بوسمار والأب بينوا مدير مـدرسة الآثار الإنجيلية الفـرنسية فى أورشليم من عام ١٩٦٤ حـتى عام ١٩٧٢ وعضو المجمــع الإنجيلى البابوى. الطبعة الثانيـة التى قام الأب ساتن دى فوار بمراجعتهــا وتصحيحها عام ١٩٧٢ وقــام بالتعليق عليها الأب بينوا والأب بواسمار بالتعاون مع الأب لاموى.
وكذلك طبقًا لإنجـيل يوحنا، تعليق الأب بواسمار والأب لاموى بالتعــاون مع الأب روشيه الصادر عام ١٩٧٧.

ويعترف الأب بوسمار والأب بينوا قائلين: «يبدو أن هذه الأقوال تتيح لنا التعرف على صيغة جديدة للأحاديث الإنجيلية، سابقة على كتابة الأناجيل الأربعة المقدسة»[1].

ومن ذلك يتضح أن جميع الكتب المقدسة المعترف بها من قبل كنيسة روما قد تأثرت بشكل كبير بشخصية وأفكار بولس، هذا إن لم تكن سائدة فيها، على الرغم من أن هذه الأفكار تختلف جذريًا مع طبيعة رسالة يسوع.

وتعلق الترجمة المسكونية للإنجيل على أقوال بولس فتقول: «إن الإنجيل لم يضف شيئًا إلى العهد القديم، بمعنى أن كل ما ورد فى الإنجيل قد ذكر سابقًا فى العهد القديم. فما يهم هو إثبات أن الإيمان المسيحى هو فى الأصل ضمن إيمان بنى إسرائيل»[2].

وبهذا الشكل لن يكون يسوع سوى ممثل التزم بسيناريو كتب له فى العهد القديم.

إن محاولة إقناع اليهود بأن ملكهم للأرض لن يكون فى نهاية الزمان بل مع ظهور يسوع، ليست سوى أفكار يهودية معدلة تسعى لإخفاء ما تميز به نزول يسوع وما بشر به من معان فريدة وغير مسبوقة.

القديس بولس والتراجع

منذ بداية حديثه، ينتحل بولس شخصية يسوع فيقول:

«ما دمتم تطلبون برهانا على أن المسيح يتكلم فِىَّ» الرسالة الثانية إلى مؤمنى كورنثوس ١٣-٣.

ثم أعلن نفسه رسولاً، أى أحد الذين بعثهم يسوع ليبشروا بكلمته، لأنه

---

(١) الكتاب المقدس المتفق عليه (١ - ٩).

(٢) طبقًا للترجمة المسكونية للإنجيل. النسخة الأصلية
13e éd Paris: Éd. Du Cerf, les Bergers et ges mages, 1977

يقول إنه رأى المسيح وهو فى طريقه إلى دمشق. وقد وصف بولس وتلاميذه هذه الرؤيا بطرق مختلفة: فتارة يقول إنها «رؤية سماوية» مثل الرؤى فى العهد القديم «ومن تلك الساعة، أيها الملك أغريباس، ما عصيت الرؤيا السماوية» (أعمال الرسل الإصحاح ٢٦ -١٩)، وتارة أخرى يقول إنها «إعلان» دون أن يقدم وصف له «فلا أنا تسلمته من إنسان ولا تلقنته، بل جاءنى بإعلان من يسوع المسيح» (رسائل بولس إلى مؤمنى غلاطية ١-١٢). ثم نجده فى مرة أخرى يذكر أنها «معرفة» (رسائل بولس إلى مؤمنى فيلبى الإصحاح٣:٨-١١).

يريد بولس إرساء الاستمرارية بين العهد القديم والجديد. وتحدد أعمال الرسل بوضوح أن بولس يتكلم عن يسوع «استناداً إلى شريعة موسى والأنبياء» (أعمال الرسل ٢٨ -٢٣). وليس أكثر دلالة على ذلك من كلمة الوعظ التى ألقاها فى المجمع اليهودى فى إنطاكية بسيدية عندما قال:

«ثم أبحر بولس ورفيقاه من بافوس إلى برجة فى بمفيلية، ففارقهما يوحنا ورجع إلى أورشليم. أما هما فتوجها من برجة إلى إنطاكية فى بسيدية. ودخلا المجمع يوم السبت وجلسا. وبعد تلاوة فصل من شريعة موسى وكتب الأنبياء، أرسل إليهما رؤساء المجمع يقولون: «أيها الأخوان، إن كان عندكما ما تعظان به الشعب، فتكلما» (أعمال الرسل الإصحاح ١٣: ١٣- ١٦).

وعندما دعاه رؤساء المجمع بعد «قراءة الناموس والأنبياء»، بدأ بولس بتلاوة شريعة اليهود المقدسة والتى تلخص تاريخ بنى إسرائيل وهو: الاختيار الإلهى والهجرة من مصر «إله هذا الشعب، شعب إسرائيل، **اختار آباءنا** ورفع قدر هذا الشعب طوال غربته فى أرض مصر. ثم أخرجهم منها بقوة ذراعه» (أعمال الرسل ١٣:١٧)، إعطاء بنى إسرائيل أرض كنعان وهلاك الأمم السبع التى كانت تعيش فى هذه المنطقة «**وأباد سبع أمم فى أرض كنعان وأورثهم أرضها**» (أعمال الرسل ١٣ - ١٩)، وأخيراً ملك داود الذى اتخذه الرب ملكًا فيقول: «ثم عزله وأقام داود ملكًا عليهم وشهد له بقوله: وجدت داود بن يسى رجلاً يرتضيه قلبى» (أعمال الرسل ١٣ - ٢٢).

وفى الآيات الأربع الأولى من رسالته إلى أهل روميه، يضيف بولس إلى تلك الشريعة التاريخية المبادئ الرئيسية الإنجيلية العظمى فيقول:

إنجيل من الله - ثم التحية

من بولس عبد يسوع المسيح، الرسول المدعو المفرز لإنجيل الله، هذا الإنجيل الذى وعد الله به من قبل على ألسنة أنبيائه فى الكتب المقدسة، وهو يختص بابنه، الذى جاء من نسل داود من الناحية البشرية، ومن ناحية روح القداسة، تبين بقوة أنه ابن الله بالقيامة من الأموات. إنه يسوع ربنا الذى به ولأجل اسمه نلنا نعمة ورسالة لإطاعة الإيمان بين جميع الأمم » (رسالة بولس إلى مؤمنى روما الإصحاح ١ : ١-٥).

وقد ظلت هذه المبادئ العظمى، طوال عشرين قرنًا، تشكل جوهر عقيدة الكنائس المسيحية.

يقول بولس مؤكدًا على أن يسوع كان من نسل داود «وأخرج الله من نسل داود حسب الوعد يسوع مخلصًا لشعب إسرائيل» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٣). ثم يضيف راويًا إدانة يسوع والحكم عليه بالصلب «فلا أهل أورشليم ورؤساؤهم عرفوا المسيح، ولا هم فهموا ما يتلى من أقوال الأنبياء فى كل سبت، فتمموها بالحكم عليه» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٧) «وبعدما تمموا كل ما كتبه الأنبياء فى شأنه، أنزلوه عن الصليب ووضعوه فى القبر، ولكن الله أقامه من بين الأموات» (أعمال الرسل ١٣ : ٢٩- ٣٠)، ليبرهن من جديد على قدرته وعلى عنايته بشعب إسرائيل.

ويكمل بولس هذه الشريعة المقدسة فى رسالته الأولى إلى مؤمنى كورنثوس وذلك بإضافة عقيدة (الفداء) فيقول: «سلمت إليكم قبل كل شىء ما تلقيته، وهو أن المسيح مات من أجل خطايانا كما جاء فى الكتب، وأنه دفن وقام فى اليوم الثالث كما جاء فى الكتب» (رسالة كورنثوس الأولى ١٥ : ٣ - ٤). إن تكرار «كما جاء فى الكتاب» ويقصد به العهد القديم، مرتين فى الآيتين ٣ و٤،

يكشف حرص بولس الشديد على إلحاق اسم يسوع بالشريعة اليهودية. وهكذا، ومنذ تلك اللحظة يصبح ذكر حياة يسوع شيئًا لا جدوى منه.

إن عقيدة بولس، قد نشأت من الرغبة فى جعل النبى داود ملكًا إلهيًا بإرادة الرب كما ذكر قائلاً «ثم عزله وأقام داود ملكًا عليهم وشهد له بقوله: وجدت داود بن يسى رجلاً يرتضيه قلبى، وسيعمل كل ما أريد» (أعمال الرسل ١٣: ٢٢).

لقد أوردت كتب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢ هذا الحديث بالنص فى صفحة ١٥٤.

إن هذا الإله كما بينته لنا رسائل بولس وأعمال الرسل، هو فى حقيقة الأمر إله غريب علينا، فهو إله الجيوش، إله يشوع ومذابحه، وهو ليس بالطبع «إله المحبة» الذى أسماه يسوع «أبى».

إن ذلك الإله هو رب بولس والكنيسة الرومانية، الذى اعتبره ديستويفسكى «استمرار للإمبراطورية الرومانية فى الغرب».

ومن أجل إضفاء الشرعية على بنوة النبى داوود ليسوع، ومن أجل أن يصبح يسوع من نسل ووريث لداوود «من دمه ولحمه» كما يقول القديس بولس، فقد اختلق القديسان الإنجيليان متى ولوقا سلالة نسب غريبة ليسوع.

وبذلك يكون بولس قد طمس نافذة الأمل التى فتحها يسوع فى تاريخ البشرية من أجل إدخال مبدأ التعالى والتنزيل، ليس لقدرة ملك يحكم على وجه الأرض، ولكن على العكس لأكثر الرجال فقرًا وتواضعًا، التعالى ليس لذوى المقامات الرفيعة ولكن لمن هو مع الفقراء فى قاع المجتمع».

وهكذا نعود أدراجنا تدريجيًا إلى المفهوم للإله الملك أو الملك الإله، كما كتب عالم اللاهوت الإسبانى جونزالس فوس قائلاً: «لقد سقط يسوع ولم نعد

نجد فـيه سوى الرب الذى نـعرفه أو الذى نعـتقد أننا نعـرفه. إن يســوع بهذه الطريقة لا يوحى بشىء»(*).

وعندما سـعى بعض تلاميذ يســوع إلى اتباع نمط حياته وليس حـياة داود قائد الجنود، أدانتهم الكنيسة. أمـا إذا تطرقنا للحديث عن الإيمان، فلسوف نذكر بالطبـع آباء الكنيسة العظمـاء وهـم: القديس يوحنا الصلـيبى ولاهوتى التحرير.

***

(*) j.i Gonzalez Faus, Accesso o Jésus, Salamanque, édSiguiéme 19890, p161.

يسوع يكشف الرب المحتجب فيجعله منظوراً

لم يدع يسوع قط أنه الله، ولكنه كان دائم القول بأنه رسول الله أو من أسماه «الآب» أى المحبة المتناهية: محبة الإنسانية، محبة الحياة الحقة ومحبة الكل المطلق الذى يسود كل طموحاتنا ورغباتنا الجزئية.

إن يسوع لم يقول قط إنه يشرع النواميس، ولكنه كان داعيًا للمحبة.

لم يقول هذا حلال وهذا حرام.

لم يدع أنه ديان البشرية.

كما أنه لم يصف نفسه مطلقًا بصانع المعجزات، ولكن على العكس، كان دائمًا القول لكل من يلصق به قدرات سحرية أن الإيمان هو الشافى «إيمانك شفاك!» «فلمس أعينهما قائلاً: ليكن لكما بحسب إيمانكما، فانفتحت أعينهما» (إنجيل متى إصحاح ٩:٢٩) وفى آية أخرى يقول «اطمئني يا ابنة، إيمانك شفاك. فشفيت المرأة من تلك الساعة».

إنه يقول أن الإيمان هو صانع المعجزات، لأنه لم يدع على الإطلاق أنه الله ولكن فقط رسول الله.

إن بولس هو الذى جعل من «مسيحه» «ملكًا لليهود». لو كان ذلك صحيحًا، لما تردد رئيس الكهنة، لحظة واحدة، على الحكم عليه بالموت كمنشق على الإمبراطورية الرومانية أو كمرابى يتاجر باسم الرب.

ولكن بيلاطس أعلن على رؤساء الكهنة والجموع بعد محاكمة يسوع قائلاً:

«لا أجد ذنبًا فى هذا الإنسان» (لوقا ٢٣-٤) ثم وجه بعد ذلك حديثه إلى كهنة المجمع اليهودى قائلاً: «ها هو ملككم!» (يوحنا إصحاح ١٩ - ١٤).

وهكذا يتبين أن كهـنة اليهود والفريسيـون هم الذين أثاروا الشعب من أجل إدانة يسوع والتـخلص منه. وهذا يدلـل على غرابة موقـف الكنيسة ومعـاداتها للسامية، عندما أدانت اليهود واتهمتهم بشعب هادم للأديان، بينما تقع مسئولية مـوت يسوع فـقط على القائمين عـلى هذه اللعبـة أى (كهنة اليـهود) ودعـاة الصهيونية اليوم، كما تقع على اللجنة الأمريكية الإسرائيلية للشئون العامة التى تعرف اختصاراً باسم «أيباك» AIPAC والجماعات التابعة لها فى مختلف أنحاء العالم مثل مافيا مجموعة «ليكرا» LICRA المناهضة للعنصرية واللاسامية والتى لا تمثل سوى ١٠٪ فـقط من المجتمع اليهـودى، والتى استبـدلت إله إسرائيل بدولة إسرائيل.

وهكذا يكون كبار كهنة اليهود الذين كانوا يدافعون عن صلاحيتهم السياسية بجانب إمبراطور روما، معلين مصلحة الدولة على الدفاع عن الدين اليهودى، قد تمكنوا من إرســاء قواعد سيـاسة معاداة الســامية الإجرامـية وذلك بخلطهم الشعب الـيهودى بالمافـيا التى تسـتغله وتتـلاعب به حتى يومنا هذا. وقـد لجأ بولس لنشر عـقيدته إلي تلك الحـيل ذاتها مما ضمن له النجـاح. وكانت نقطة الانطلاق هى «قيامـة يسوع» الذى قدمهـا لليهود على أنها «مـعجزة تدل على قدرة الرب» من أجل إقناعـهم بأن هذه القيامـة ليست سوى تحقـيق لوعد الله لهم، «ونحن نبشركم بأن ما وعد الله به آباءنا تم لنا، نحن أبناءهم، حين أقام يسوع من بين الأموات» وفـقًا لما كتب فى المزمور الثـانى: «أنت ابنى، أنا اليوم ولدتك» (أعمال الرسل إصحاح ١٣: ٣٢, ٣٣).

إن هذه القيامـة بالنسبة لبولس تعد استـمراراً لأعمال داود الطيبة كـما سبق وأعلن إشعياء فى العـهد القديم. وفضلاً عن ذلك، فقـد استطاع إقناع الجموع غيـر اليهـودية وخاصة الـيونانيين، الذين يتطابق لديهم الله والـقدرة، بأن هذا

الإله هو صاحب القدرة العظمى. واستطاع بولس، أيضًا، أن يحفر فى أذهان اليهود واليونانيين فكرة اتسام يسوع بالسمات التقليدية لآلهة القدرة اليونانية القديمة، مثل القدرة على التدمير والخلق كما كان يفعل زيوس ومهارته فى تسخير الصواعق و«يهوه» إله الجيوش عند اليهود.

بيد أن هذا «الإصلاح الرجعى» الذى قام به بولس، ونزل بيسوع إلى مرتبة الآلهة القبلية القديمة من أجل تحويلة إلى إله من آلهة القدرة اليونانية، لن تفيده حياة يسوع فى شىء، حتى الأحداث المتفرقة التى وردت فى الأناجيل الأربعة عن حياته، فإنها لا تستطيع أن تقدم له أى عنصر إضافى ولو ضئيل: فمنذ ولادة يسوع فى حظيرة حتى موته على الصيلب مع العبيد، فإن هذا المبشر الذى كان يعيش متنقلاً بين المدن والذى لم يدع قط صنع المعجزات ولكنه، على العكس، كان ينسب هذه المعجزات إلى الإيمان، هذا الشهيد الذى أهين وأذل وتوج بتاج من الأشواك تحقيرًا له، لن يفيد فى خلق بطل من أبطال الفروسية على طريقة داود كما ذكر بولس قائلاً: «فإنه لابد أن يملك إلى أن يضع جميع الأعداء تحت قدميه» (رسالة بولس الأولى إلى مؤمنى كورنيثوس ١٥ -٢٥) وأيضًا كما سبق وتنبأ داود في المزامير حيث يقول «قال الرب لربى: اجلس عن يمينى حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك» يجعل الرب صهيون منطلقًا لسلطانك (المزمور ١١٠: ١-٢).

ومن هنا نستطيع أن نفهم ما عبر عنه الأب سيجوندو Segundo من قلق عندما اعترف قائلاً: «فى هذا البعث نجد صعوبة فى التعرف على يسوع التاريخى»[1].

يقول يسوع: «ما جئت لأدعو أبرارًا بل خاطئين» (مرقس ٢: ١٧) ويقول أيضًا لأحد المجرمين المصلوبين معه: «الحق أقول لك: ستكون اليوم معى فى

---

(١) راجع كتاب الأب سيجوندو بعنوان «ما هى العقيدة؟» ١-١٥.

الفردوس». (لوقا الإصحاح ٢٣:٤٣) وقال للأحـبار: «الحق أقول لكم: جباة الضرائب والزوانى يسبقونكم إلى ملكوت الله» (متى الإصحاح ٢١:٣١).

إن ذلك الإنسان الذى كان يقول: «أنا لن أكون ديان أحد»، ها هو قد تنكر بأيادى بولس وتحول إلى منقـذ إسرائيل «أناشدك أمام الله والمسـيح يسوع الذى سيدين الأحياء والأموات عند ظهوره ومجىء ملكوته» (رسالة بولس الثانية إلى تيموثاوس الإصحاح ٤:١).

فبـينما كان يسـوع رسولاً قد بعـثه الرب إلى الفقـراء خاصة، وكـان يدعو تلاميذه إلى الزهد فى كل شيء، فإن القـديس بولس كان يخدم الأثرياء بشكل مؤثر للغاية: فقد كان أول من بادر بالخلط بين «العطايا» و«الإحسان».

ومن هنا نفهم مما ذكره «بوسويه- Bossuet» فى كتابه «السياسة من التاريخ المقدس» قائلاً: «الإله الحق، هو إله بنى إسرائيل».

إن الخلط بين تعاليم يسوع وتعاليم القديس بولس تحجب عن أعيننا إدراك أن الكنيسـة تتبع تعاليم بـولس منذ عشرين قـرنًا، وتذكر ذلك صراحـة فى كتب التعاليم المسيحية لعام ١٩٩٢م مستشهدة بقول بولس: «ثم عزله وأقام داود ملكًا عليهم وشهد له بقوله: وجدت داود بن يسى رجلاً يرتضيه قلبى، وسيعمل كل ما أريد» (أعمال الرسل الإصحاح ١٣:٢٢).

إن لاهوت السـيطرة الذى تم تأسـيسـه منذ عشـرين قـرنًا على نهج داود، يطبق، مثـل يشوع، إرادة رب الجيـوش. ومنذ ذلك الوقت، نشأت مـا يسمى باليهودية المسيحية. حتى إن اسم الكـنيسة، ظهر لأول مرة عندما ذكره القديس بولس فى رسالته الأولى إلى مؤمنى كورنثوس عندما قال لهم: «أما وأنتم أيضًا ترغبـون فى المواهب الروحيـة، فاطلبـوا أن يزيدكم الله منها لـبنيان الكنيـسة» (كورنثوس الأولى الإصحاح ١٤:١٢).

إن بولس لم يقم بإعادة تهويد المسيحية فحسب، بل حولها إلى ديانة هيلينستية.

وقد وصل نجاحه فى هذه المهمة إلى ذروته، عندما قام الرومان بتدمير أورشليم فى عام ٧٠م، فعاش اليهود فى شتات متفرقين فى منطقة جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط، فازداد تأثرهم بالثقافة اليونانية.

بولس لم يكن داعية يتسم بعقلية منظمة بارعة- استطاع بواسطتها إنشاء كنائس فى كبرى المراكز فى الشرق الأوسط مثل إنطاكية وأفسس- فحسب، بل لقد كان أيضًا ذا ثقافة يهودية ويونانية واسعة، مكنته من نشر إنجيله فى كل الشتات اليهودى. إن هذا الإنجيل لم يكن إنجيل يسوع بل كان إنجيل الرب كما كان يقول. وقد أثبت فى خطابه الذى وجهه إلى أهل أثينا تمكنه وفهمه للثقافة اليونانية، فلقد كان يظهر قوة وبراعة كبيرة فى مزج وتطعيم المفاهيم والمعتقدات اليهودية التاريخية بالثقافة اليونانية.

فمن أجل عرض رسالته، سعى جاهدًا إلى ربط هذه الرسالة بأفكار ومعتقدات مستمعيه من أهل أثينا. ففى بداية خطابه، لم يتحدث عن حياة يسوع أو موته بل تحدث فقط عن قيامته فى نهاية الخطاب عندما قاطعه جموع مستمعيه مستهزئين به. أما فى باقى الخطاب، فقد كان يتحدث فقط عن الشريعة اليونانية.

ومن أجل أن يسترعى انتباه واهتمام أهل أثينا، أعلن بولس بلهجة ساخرة قائلاً: «يا أهل أثينا! أراكم أكثر الناس تدينا فى كل وجه» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧ :٢٢). لقد لاحظ فى أثينا، كما يقول وجود معبد مكتوبًا عليه «إلى الإله المجهول» (ولم يكن ذلك صحيحًا، فقد كتب أهل أثينا على المعبد «إلى الآلهة المجهولة» خشية منهم نسيان أحد هؤلاء الآلهة فتحرمهم من قائمة خدماتها). لقد عقد فى هذا الخطاب مقارنة جريئة بين الرب وآلهة اليونانيين قال فيها: «لأنى وأنا أطوف فى مدينتكم وأنظر إلى معابدكم وجدت مذبحًا

مكتوبًا عليـه: إلى الإله المجهول. فهـذا الذى تعبدونه ولا تعـرفونه هو الذى أبشركم بـه. إنه الله خالق الكون وكل مـا فيه، فـهو رب السـماء والأرض لا يسكن فى معابد بنتها أيدى البشر» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧: ٢٤- ٢٣) ثم أخذ، بعد ذلك، يعدد التنوييهات والتشبيهات والاستشهادات التى اقتبسها كلها من أعمال كبـار الفلاسفة والمعلمين اليـونانيين والرومـان فيقول إن هذا الإله: «لا تخدمـه أيدٍ بشرية، كـما لو كـان يحتـاج إلى شيء، لأنه هو الذى يعطى البشـر كلهم الحياة ونسـمة الحيـاة وكل شيء» (أعمال الرسل الإصـحاح ١٧: ٢٥). وقد ذكـر ذلك من أجل تحريم صنـاعة الأصنام التى كـانت محـرمة فى ذلك العصر كما ذكر الفيلسوف الرومانى «سيناك».

ثم استطرد ذاكرًا استشهادًا اقتبسه من الشاعر Epimenide فى القرن السادس قبل الميلاد فقال: «لأننا به نحيا ونتـحرك ونوجد، أو كما قال بعض شعرائكم: نحن أيضًا ذريته» (أعمال الرسل الإصحاح ١٧: ٢٨). لقد كان هذا الاستشهاد مقتبسًا من أفلاطون فى ثلاثيته الحياة والحركة والوجود.

وفى تسلسل قام بربط حديـثه بقضية تتعلـق (بالرواقيين) وهى وحدة الجنس البشرى.

وكان هذا الاستشـهاد قد استقاه من كتـاب «الظواهر» للفيلسوف «اراتوس» الذى ظهـر فى القـرن الثالـث قبل الميـلاد وكـان مقـربًا للفـيلسـوف الرواقى «كليانت».

إن اللغة التى تحدث بها بولس فى هذا الخطاب، لغـة مزدوجة، غدت اللغة الثابتـة لخطاب الكنيـسة المسيـحيـة، أى الحديث عن السـلام دون الإشارة إلى المذنب، والحديث عن المحبة مع إقامة محاكم الـتفتيش، والتسامح مع العبودية والاسـتيطـان، والقول بأن يسـوع قـد أتى من أجل «تطبـيق النامـوس» وليس إلغاءه، كما لو أن المحبة كانت تطبيقًا للقصاصا!.

لقد أعلن بولس بطريقة بارعة إلى العبيد قائلا: «فعلى كل واحد أن يبقى مثلما كانت عليه حاله عندما دعاه الله. فإن كنت عبدًا عندما دعاك الله فلا تهتم. ولكن إن كان بإمكانك أن تصير حرًا، فالأولى بك أن تغتنم الفرصة فمن دعاه الرب وهو عبد كان للرب حرًا، وكذلك من دعاه المسيح وهو حر كان للمسيح عبدا» -(كورنثوش الأولى الإصحاح ٧ : ٢٠ - ٢٢) ثم يوجه حديثه إلى النساء قائلا: «أيتها النساء، اخضعن لأزواجكن كما تخضعن للرب فإن الزوج هو رأس الزوجة كما أن المسيح أيضًا هو رأس الكنيسة» (الرسالة إلى مؤمنى أفسس ٥ : ٢٢) و«أيتها النساء اخضعن لأزوجكن كما يليق فى الرب» (الرسالة إلى مؤمنى كولوسى الإصحاح ٣ : ١٨) ويضيف: «ولا أجيز للمرأة أن تعلم ولا أن تتسلط على الرجل، بل عليها أن تلزم الهدوء ذلك لأن آدم كون أولاً ثم حواء، ولم يكن آدم هو الذى انخدع (بمكر الشيطان) بل المرأة انخدعت فوقع فى المعصية» (رسالته الأولى إلى تيموثاوس ٢ : ١٢ - ١٤) و«وإذا كانت المرأة لا تغطى رأسها، فأولى بها أن تقص شعرها، ولكن إذا كان من العار على المرأة أن تقص شعرها أو تحلقه، فعليها أن تغطى رأسها» (كورنثوس الأولى الاصحاح ١١ : ٦).

إن هذه المسيحية الهيلينستية قد لاقت نجاحًا كبيرًا إلى الدرجة التى أصبحت تشكل قوة فى الإمبراطورية الرومانية، فطبقًا لتعداد تم فى عهد الإمبراطور طارجان Tarjan، كان يوجد مواطن يهودى مسيحى بين كل عشر مواطنين يونانيين. ولقد كان الرومان يخلطون منذ زمن بعيد بين اليهود والمسيحيين فيمنحون المواطنة الرومانية إلى اليهود وكان من بين هؤلاء القديس بولس الذى لم يتردد فى استغلال والاستفادة من تلك المواطنة فى نزاعاته مع القضاء والسلطة الرومانية.

١- إن قراءة العهد القديم وتسلسل النصوص الإنجيلية، تجعلنا نتساءل إن كان من الطبيعى عدم ذكر أن رسائل بولس كان سابقًا على كتابة الأناجيل

الأربعة المقـدسة، وأن كتاب هذه الأناجيـل، عندما عرفوا حـياة يسوع، أرادوا إدراج ذكرياتهم الشخـصية وأقوال يسوع وأعـماله فى إطار لاهوت بولس الذى سبق عصرهم.

٢- وبعد مرور ثلاثة قرون على تفسير النصوص المقدمة ومرور عشرين قرنًا من التعليم الدينى، هل من الأمانة اعتماد كلمة «المسيحية» هذه الكلمة التى لم تظهر إلا عند مرور القديس بولس بأنطاكية عام ٤٣م، عندما أطلق بولس على تلاميذه المسيحيين: «فلما وجده جاء به إلى أنطاكـية فأقاما سنة كاملة يجتمعان إلى جماعة الكنيسـة، فعلما جمعًا كبيرًا. وفى أنطاكيا تـسمى التلاميذ أول مرة بالمسيحيين» (أعمال الرسل الإصحاح ١١ : ٢٦).

إن كلمة المسيح تعنى «المنقذ» أى منقذ مملكة داود، فى حين أن تلاميذ يسوع يطلق عليهم حتى الآن «القديسيين».

إن بولس يسمى تعاليمـه «إنجيلى» ولا يسميه مطلقا «إنجيل يسـوع» فيقول: «يوم يدين الله خفايا الناس، وفقًا لإنجيلى، على يد يسوع المسيح» (الرسالة إلى مؤمنى رومـية الإصـحاح ٢ : ١٦). فهـو يفضل أن يقـول «إنجيل الرب» لأنه يقصد بهـذا الرب، رب إسرائيل الذى لا يكف عن مناجاته. فـبولس لم يذكر مطلقًا فى رسائله أقـوال يسوع أو أعماله، لأن حياة يسوع البـائسة وموته بهذه الصورة الوحشية على الصليب مع العبيد، لا تتفق وما ينتظره الشعب اليهودى وهو مجيء أحد الغزاة علـى طريقة داود لينصر ملكهم كما روى كتـبة سليمان فى الملحمة الأسطورية.

وهكذا يكون بولس قـد أرسى قواعـد الديانة اليهـودية المعدلة التى لا تـعد امتدادًا للملحمة الأسطورية للشعب اليهودى فحسب، بل تشبه بكل بساطة هذه البقية من القبائل اليهودية التى ينقذها الرب بعد كل خيانة بمسيح منقذ، والذين وعـدهم بولس بعودة المسـيح «تحيط به المـلائكة» من أجل القضـاء على الملوك وإقرار ملك بنى إسرائيل.

لقـد أراد بولس أن يبـدأ التاريخ المسيـحى فـقط «بإنجـيله» الذى يلغى كل الأناجيل الأخرى: فهو يرفض حتى أن يقوم بالتـبشير فى مكان مر به قبله أحد الإنجيليين. ياله من تشدد غريب من قبل أحد المبشرين!

أما «القـيامة» فـقد لا تتجلى، بالنسـبة لبولس، إلا لـكى تؤكد لنا قيـامتنا بالمنح، باعتبـارها «معجزة دالة على قدرة الله» فكمـا أن المسيح حى بقدرة الله فنحن سنكون أيضًا أحياء معه بقدرة الله تمامًا كما يقول بولس: «ومع أنه صلب بضعفـه فهو الآن حى بقدرة الله ونحن أيضا ضـعفاء فيه، ولكننـا فى معاملتنا لكم سنكون بقدرة الله أحياء» (كورنثوس الثانية ١٣ : ٤).

إن مفهوم العقيدة فى فكر بولس ليس سوى تأكيد على الديانة اليهودية التقليدية، التى فى الغالب اختفت أيضًا ملامحها من تلك العقيدة.

لقد ركز بولس اهتمامه على إدراج اسم يسوع فى الحديث اليهودى. وعندما أشار إلى «البشرى الطيبة» لم يتفوه بكلمة عن حياة يسوع كما لو أن هذه الحياة لا جدوى لها، بل وتثير الضيق، هذا لأنها كانت بالطبع نقيضًا لحياة داود.

إن المنطق الذى يسيطر على فكر بولس هو أن يـجعل يسـوع يقـول، بعد مـوته، عكس ما كـان يقوله ويفعله فى حياته. لقد اسـتطاع بولس تحويل نجـار الناصرة إلى ملك وإله قـادر. أما الموت فـقد ابتلعـه النصر «ابتُلع الموتُ فى النـصر فأين يـا موت شوكـتك؟ وأين يا موت نهرك؟ وشوكـة الموت إنما هى الخطيئة» (كـورنثوس الأولى ١٥ : ٥٥). لقـد حول بولس الـقيـامة إلـى نصر على ممالـك الأرض التى خضـعت جميعها لعقابه وكان مـصيرها الدمار. يقول بولس «ويكون المنتهى حين يسلم المسيح الملك إلى الله الآب بعد أن يبيد كل رئاسـة وكل سلطة وقوة. فلا بد له أن يملك حتى يضع جميع أعـدائه تحت قدميه» (كورنثوس الأولى ١٥ : ٢٤ - ٢٥) **وكان هذا** الحديث تأكيد لما جاء فى (المزمور ١١٠) الذى يعـد ترنيمة القدرة وتمجيد لداود قائد الجيوش وجعل من يسوع وريثًا غريبًا لداود. وهكذا يكون يسوع قد عاد - باسم جديد وهو المسيح - إلى عقيدة آلهة القدرة.

إن الله فى نظر اليهـود هو من يحمى الذين يؤمنون به ويمنحـهم النصر على أعداءهم. لهذا، فقد كان اليهود يرشقون يسوع بالسباب والألفاظ الساخرة وهو على الصليب، ذلك لأن الله لم يـخلصه من صلبـه كـما سـبق وخلص النبى دانيال من مخـالب الأسود فى الجب «فطابت نفس الملك جدا، وأمـر بإخراجه من الجب، فخرج سالمًا من كل سوء، لأنه آمن بإلهه» (دانيال ٦ : ٢٣). ومن هنا نستطيع أن نفهم لماذا لم تكن حياة يسوع ذات أهمـية بالنسبة لبولس، فهذه الحياة لم تكن السبب فى موت يسوع لأن موته كان مقررًا من قبل بمرسوم إلهى أبدى. وهو لم يمت أيضًـا لانتهـاكـه النواميس المقـدسـة اليهـودية أو لرفضـه الاعتراف بألوهيـة الإمبراطور، رب الرومان، بينما كان يسـوع يدعو دائمًا إلى «اعطوا لله ما لله».

إن بولس يستهين بحيـاة يسوع - كما لو كانت هذه الحياة بكل مـا فيها من قلق وشكوك ومعان إنسانية، غير قادرة على أن تجعل الآب إلهًا منظورًا - التى فهمـها الوثنى قائد المائة، حين قال أمام الصليب - قـبل القيامة -: «بالحقـيقة كان هذا الإنسان ابن الله» (مرقس ١٥ : ٣٩).

فالبـشرى الطيـبة بالنسـبة لبـولس لم تكن حيـاة يسوع الذى حطم بـأقواله وأعماله كل الماضى بما فيه من آلهة القدرة.

وفى المقابل يقـول بولس: «لأنى ما قصـرت فى إبلاغكم مشيئـة الله كلها» (أعمال الرسل ٢٠ : ٢٧). فمن أجل أن تصبح القيامة «معجزة دالة على قدرة الله» كان لابد أن يصاحـبها حدث جلل مماثل لرؤية حـزقيال التى حدثت فـيها معـجزة خروج العظام من باطن الأرض مكسـوة باللحم والجلد: «وحلت على يد الرب، فـأخـرجنى بالروح ووضـعنى فى وسط الوادى وهو ممتلئ عظامًـا. وقادنى بين الـعظام وحولها، فـإذا هى كثـيرة جدًا على أرض الـوادى ويابسة تمامًا. فـقال لى: «يا ابن البـشر أتعود هذه العظام إلى الحـياة؟» فـقلت: «أيها السيـد الرب أنت وحدك تعلم». فـقال لى: «تنبأ على هذه الـعظام وقل لها:

أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب: هكذا قال السيد الرب لهذه العظام: سأدخل فيك روحًا فتحيين. أجعل عليك عصبًا وأكسيك لحمًا وأبسط عليك جلدًا وأنفخ فيك روحًا، فتحيين وتعلمين أنى أنا هو الرب». فتنبأت كما أمرت. وبينما كنت أتنبأ سمعت بخشخشة، فإذا العظام تتقارب، كل عظمة إلى عظمة. ورأيت العصب واللحم عليها، والجلد فوقها، وما كان فيها روح بعد. فقال الرب لى: «تنبأ للروح، تنبأ يا ابن البشر، وقل للروح: هكذا قال السيد الرب: تعال أيها الروح من الرياح الأربع وهب فى هؤلاء الموتى فيحيوا». فتنبأت كما أمرنى، فدخل فيهم الروح فحيوا وقاموا على أرجلهم جيشًا عظيمًا جدًا. فقال الرب لى: «يا ابن البشر، هذه العظام هى بيت إسرائيل بأجمعهم. هم يقولون: يبست عظامنا وخاب رجاؤنا وانقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب: سأفتح قبوركم وأصعدكم منها يا شعبى، وأجىء بكم إلى أرض إسرائيل. فتعلمون أنى أنا هو الرب حين أفتح قبوركم وأصعدكم منها يا شعبى. وأجعل روحى فيكم فتحيون وأريحكم فى أرضكم، فتعلمون أنى أنا الرب تكلمت وفعلت، يقول الرب». ـ(حزقيال ٣٧: ١- ١٤).

إن بولس يتحدث، بحذر، عن «الجسم الروحى» قائلاً «يدفن جسمًا بشريًا ويقوم جسمًا روحانيًا. وإذا كان هناك جسم بشرى، فهناك أيضًا جسم روحانى». (كورنثوس الأولى ١٥ : ٤٤).

أما الرسل، فقد تحدثوا عن الجسد المادى حتى تكون الألفاظ التى يستخدمونها فى حديثهم الرعوى فى متناول إدراك الشعوب، وقد مضى آباء الكنيسة على هذا النهج. ففى القرآن الثانى الميلادى وفى دراسة بعنوان «حول قيامة الموتى» ذكر الفيلسوف «ترتليان» استشهادًا مطولاً مقتبسًا من رؤية حزقيال، ثم استشهد ببولس فى الخاتمة قائلاً: «كلما نتحدث عن قيامة الموتى يكون مقصدنا قيامة الأجساد» كما قال بولس.

وهكذا، فإن كل ما يتعلق بالقيامة يأتى من خارج العالم البشرى، أى تطبيقًا لمرسوم إلهى أبدى لا يحدث سوى مرة واحدة بفضل هذه المعجزة! معجزة القدرة.

إن الكنيسة اليهودية المسيحية التى نسب لها بولس ميراث العهد القديم ستأخذ إذن على عاتقها مسئولية جميع الأساطير والعقائد المتناقضة الملفقة التى تشكل ماضيها الوهمى.

* * *

* أليس الإخلاص ليسوع يحتم تفضيل الفقراء الذى من أجلهم بعثت رسالته؟

* هل بمقدور عقيدة بولس اليهودية المسيحية دفعنا إلى الاعتقاد بأن يسوع هو داود الثانى؟ أى قائد الجيوش الذى جاء لخدمة سلطة ما؟ على الرغم من أن هذه العقيدة لم تستشهد قط بأقوال يسوع أو أعماله، بل إنها لم تكترث به إلا فى مرحلة ما قبل مولده وذلك بواسطة سلالة أنساب متناقضة كان الهدف منها هو تحويل يسوع إلى ملك وخليفة لداود كما ورد فى العهد القديم (صموئيل الأول والثانى وكتاب الملوك).

* هل موقف بولس من الأغنياء ودعوته إليهم بتقديم عطاياهم مما يفيض عن حاجتهم حتى لا يشعروا بالضيق، تتفق مع ما دعا إليه يسوع من زهد وتجرد من كل شىء إذا كنا نريد أن نكون من أتباعه؟

* هل بمقدورنا أن نقول فى إطار هذا الفكر اليهودى المعدل، مثل بوسويه إن «يسوع هو مسيح إسرائيل» أى أن «الإله الحق هو إله بنى إسرائيل»؟

إذا استطعنا أن نقول ذلك، فلن يصبح يسوع سوى ممثل ينفذ السيناريو الذى كتب له فى العهد القديم. ولن يكون هو من فتح نافذة الأمل الهائلة فى تاريخ البشرية وتاريخ الآلهة من أجل أن ينبثق مبدأ التعالى، التعالى ليس لسلطة ملك أرضى، بل لتجرد أكثر الرجال فقرًا.

إن يهودية بولس المعدلة تعيد من جديد سلطة «رب الجيوش» وتجعل منه ربًا قادرًا يعود إلى الأرض محاطًا «بملائكة قدرته».

إن معتقـداتنا الدينية، التى ظلت حبيسة هذا المفهـوم البشرى للرب، ليست بمعزل عن تلك الأوهام. فمبدأ «العفو الإلهى والنعمة» سيظل دائمًا هو السلطة التعسفـية المطلقة التى تسيطر على الإنسان. ولن يسـتطيع الإنسان التملص من مسـئوليته حـتى وإن لم يكن هناك ناموسًا إلهـيًا يسيطر عليـه ويهدده بخطاياه ونواهيه.

فكل ما يحـدث فى حياة البـشر من أحداث تخـضع لهذا المبدأ: أى «مـبدأ الإله الذى يخضع كل شىء لإرادته» كمـا ورد فى كتاب التعاليم المسيـحية فى عام ١٩٩٢م لـلبابا يوحنا بولس الثـانى، والذى أورد بالنص مـا ذكره مجـمع تورنتو (١٥٤٥ - ١٥٦٣م) الذى يـستند بدوره إلى رسالة القـديس بولس إلى مؤمنى فيلبى عندما قال: «لأن الله يعمل فـيكم ليجعلكم راغبين وقادرين على إرضائه». (فـيلبى ٢ : ١٤) وعندما عاد وحـدد إلى مؤمنى روما قـائلاً: «فإذا كان الاختيار بالنعمة، فما هو إذًا بالأعمال، وإلا لما بقيت النعمة». (رومية ١١ : ٦). فالعفو هو نعمة ممنوحة من الرب ليـخلص مؤمنيه كما كان يصر بولس قائلاً: «بنعمة الله نلتم الخـلاص بالإيمان. فما هذا منكم، بل هو هبة من الله» (مؤمنى أفسس ٢ : ٨).

***

من القديس بولس إلى نيقية (عام ٣٢٥م)

بولس هو مؤسس المسيحية ومكسبها صفتها المؤسسية، وهو أيضًا مؤسس لاهوت السيطرة.

إن الكنيسة التى كانت تعانى فى القرن الرابع الميلادى إبان الإمبراطورية الرومانية من الانقسام والتفكك، أصبحت بعد ذلك تشكل قوة لا يستهان بها، حتى إن الأباطرة وجدوا أنفسهم أمام خيارين: إما اضطهادها كما فعل الإمبراطور دوميتيان، وإما التحالف معها كما قام بعد ذلك الإمبراطور قسطنطين.

هذه الكنيسة كانت بالنسبة لبولس تمثل «البقية» من المؤمنين الذين نجاهم الرب مع نوح فى السفينة. تلك «البقية» الطاهرة التى خرجت من جزع يسى مع داود كما ذكر أشعياء: «يخرج فرع من جذع يسى وينمو غصن من أصوله. روح الرب ينزل عليه، روح الحكمة والفهم والمشورة روح القوة والمعرفة والتقوى، ويبتهج بمخافة الرب»- (إشعياء ١١ : ١ - ٤) إن هذه «البقية» ينجيها الله دائمًا فى كل مرحلة من مراحل تاريخ الخلاص حتى تستفيد من «الاختيار الإلهى». ويوضح بولس ذلك إلى أهل رومية قائلاً: «وفى الزمن الحاضر أيضًا بقية من الناس اختارها الله بالنعمة» - (رومية ١١ : ٥).

لقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ما يمكنه استغلاله من هالة القدسية التى تحيط «بالطاعة» للكنيسة، فجعل من المسيحية الديانة الوحيدة المميزة للإمبراطورية وحرص على إنهاء جميع الانقسامات الأيديولوچية بين المسيحيين.

بيد أنه فى القرن الرابع الميلادى، وقع حادث هدد وحدة الكنيسة، وهو تبشير أسقف الإسكندرية آريوس.

لقد قام أنصار المذهب الأرثوذكسى بإحراق وتدمير جميع أعمال آريوس فيما عدا خطاب واحد. لذا فلن نتمكن من تحديد ما ذكر فى هذا الخطاب تقريبًا إلا من خلال ما ورد إلينا من أقوال أعداء آريوس أنفسهم ولاسيما القديس هيلار. ففى بداية القرن الرابع الميلادى، أراد آريوس - كما يبدو - الحفاظ على وحدة الذات الإلهية ضد الاتجاه السائد آنذاك، والذى كان يهدف إلى إحلال يسوع الرب - خالق كل شىء - مكان الله المطلق، كما ذكر القديس بولس قائلاً: «فلنا نحن إله واحد وهو الآب الذى منه كل شىء وإليه نرجع، ورب واحد وهو يسوع المسيح الذى به كل شىء وبه نحيا». (كورنثوس الأولى ٨ : ٦).

إن مفتاح فكر آريوس هو الآية التى يقول القديس بولس فيها: «الآب أعظم منى»، بالإضافة لجميع المقولات التى تستبعد فكرة تطابق الله مع يسوع، مثل ما ورد فى إنجيل يوحنا حينما قال: «لا تمسكى بى! فإنى لم أصعد بعد إلى الآب، بل اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم: إنى سأصعد إلى أبى وأبيكم، وإلهى وإلهكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧).

إن يسوع، فى فكر آريوس، «ينبثق من الرب» وهذا التعبير مأخوذ من أفكار الفيلسوف بلوتن الذى استوحاه بدوره من عقائد الهند. فآريوس يقول إن يسوع قد جاء - مثل جميع البشر - «على صورة الرب» صورته المثلى الكاملة وهى صورة الرسول شديد الإخلاص لكل ما يندرج تحت هذه الوحدة الإلهية، وهو شاهد بحياته وموته على هذه الوحدة. وطبقًا لهذه الفكر، يصبح يسوع الصورة المنظورة للرب غير المنظور كما كان يقول: «من رآنى فقد رأى الآب».

إن النجاح الذى لاقته أفكار وتبشير آريوس قد وصل الجدل حوله إلى الحد الذى أدى إلى انقسام جميع كنائس الشرق.

أما قسطنطين الذى كان يريد توحيد أركان إمبراطوريته، فقد رأى فى هذا التمزق عاملاً قد يؤدى إلى انتشار الفوضى وزعزعه النظام العام. لذا فقد سعى فى البداية إلى محاولة التوفيق بين المذاهب والآراء، وعندما فشلت جميع مساعيه، قرر اللجوء إلى القوة.

لقد كان الإمبراطور قسطنطين، فى ذلك الوقت، خارجًا لتوه من معركة هزم فيها غريمه إمبراطور الشرق (لسنيوس) واستطاع أن يدخل عاصمته نيكوميديا ظافرًا عام ٣٢٤م، قام قسطنطين فى العام التالى، أى عام ٣٢٥م بدعوة المجمع الكنسى إلى الاجتماع فى مدينة قريبة من نيكوميديا وهى نيقية من أجل إدانة آريوس، وذلك بإصدار مرسوم صارم يساعده على التعرف على العناصر المتمردة بين رعاياه الخاضعين لحكمه. وفى المجمع، أخبر الإمبراطور آباء وأساقفة المجمع أن أى شخص سيرفض القرار النهائى الذى سيتم اتخاذه فى المجمع سيتم نفيه.

وطبقًا للشهادة التى ذكرها أثانسيان فى كتابه بعنوان «حول مراسيم مجمع نيقية»، فإن أساقفة المجمع كما يقول باعتباره كان حاضرًا المجمع «قد طمحوا فى البداية إلى محاولة انتزاع السباب من أفواه أتباع آريوس وذلك باستخدام كلمات من الكتب المقدسة»[١].

بيد أن قسطنطين أراد اتباع معيار واضح لكى يستطيع التمييز بين المذهب الأرثوذكسى الذى سيحقق وحدة إمبراطوريته الأيديولوچية، وبين الهرطقة التى كرس نفسه لقمعها.

وقد اختار مستشاروه التعبير اليونانى Omoousios الذى يعنى أن الابن خلق من «جوهر» الأب، مما يعد اختيار غريب، لأن الإيمان المسيحى - بهذا الشكل- يتم التعبير عنه بطريقة وأسلوب يونانى خالص. بينما المفهوم الجوهرى للفلسفة اليونانية وهو مفهوم «الوجود» أو «ousia» باللغة اليونانية، يعتبر مفهومًا غريبًا تمامًا عن الشريعة اليهودية للإله الحى الخالق. كما أنه غريب بالنسبة للشريعة الإنجيلية والتى تنص على أن الله محبة، أى علاقة وليس «وجودًا» كما فى الفلسفة اليونانية.

---

(١) راجع كتاب الأب إفريم بولاراند بعنوان «هرطقة آريوس وإيمان نيقية» الجزء الثانى ص ٣٠٤.
Pére Ephrem Boularand S.j “l’heresie’arius Etla Foide Nicee” (´ed. Letouzey Et Ané. 1972, Tome Ll.

لقد أدى استخدام هذا التعبير اليونانى إلى حالة من البلبلة الشديدة، وصلت إلى الدرجة التى أصبح فيها الشعب فى نيقية يستخدم كلمة «hypostase» والتى يُقصد بهـا أحد أركان الثالوث، كمرادف لكلمـة «الجوهر» والتى تعنى الوجود الحقيقى فى مظهره الخارجى.

ويرجع أصل كلمة «omoousios» إلى العقيـدة الغنوصية والتى قـام مجمع إنطاكية بإدانتـها عام ٢٦٨م معلنًا حرمان ونفى الأسقف بولـس أسقف إنطاكية واتهامه بالهرطـقة، وذلك لاستخدامه هذه الكلمة الـتى لا وجود لها سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد.

وقد كان من المتوقع، بل ومن المؤكد، أن آريوس واتباعه لن يقبلوا قرار هذا المجمع. وكان هذا مـا ينتظره الإمبراطور، لذا فقد أمر بنفى جـميع الآريوسيين بالإضافة إلى ثلاثة من أساقفة قاموا بعد انـتهاء انعقاد المجمع بإعلان انسحابهم لأنهم لم يصوتوا على هـذا القرار إلا خوفًا من الإمـبراطور، فقـرر قسطنطين عزلهم ونفيهم إلى «بلاد الغال» فى فرنسا.

ومما سبق، ندرك، أن جوهر المـشكلة لم يكن العقيدة، بل السـياسة والنظام العام. ففى نيـقية كان الانصيـاع لأوامر الإمبراطور أمـرًا واجبًا، لذا ومن أجل إقرار السلام فى الإمبراطورية الرومانية، كـان لابد أن يصبح يسوع إلهًا كغيره من الآلهة، بل ومثل الإله جـوبيتر، أى قسطنطين نفسـه الذى كان وظل حتى وفاته يطلق عليه الحبر الأعظم.

لقد ذكر يوحنا دانييلو فى كتابه «التاريخ الجديد للكنيسة» قائلا :-

«إن الإمبراطور يعتقد ببساطة أنه قائد الشعب المسيحى، أى موسى الجديد أو داود الجـديد على رأس بنى إسـرائيل الـحقـيـقـيـين وهذا هو الرباط المقـدس الجديد[1]».

---

(١) راجع كتاب يوحنا دانييلو بعنوان «التاريخ الجديد للكنيسة» الجزء الأول ص ٢٨٣.

لقد أقر مجمع نيقية بصورة نهائية أرثوذكسية بولس. وقد كتب العالم ومؤرخ مجمع نيقية الأب بولاراند عن ذلك قائلاً:

«لقد استوحى محررو مجمع نيقية قراراتهم مباشرة من بولس». أما الأب سيجوندو فقد ذكر أن مجمع نيقية: «قد اجتمع فقط من أجل تضخيم وإعطاء أهمية كبيرة لاعتراف بولس بإيمانه» فقد أعلن المجمع أن يسوع الناصرة، ابن الرب، من جوهر واحد وطبيعة واحدة أو من كينونة واحدة لله الواحد الذى يعبده اليهود وبعض الفلاسفة اليونانيين الذين لا يؤمنون بتعدد الآلهة»[1].

وهكذا يكون يسوع قد دخل مبدأ الحق المشترك للآلهة القديمة، فأصبح هو الخالق لعالم لا مساس به كما يقول بولس «هو صورةُ الله الذى لا يُرى وبِكْرُ الخَلائِق كُلِّها» (كولوسى ١ : ١٥).

لقد كان إيمان بولس هو أفضل ضمان للإمبراطور قسطنطين من أجل إخضاع الشعب للوضع الراهن.

إن اهتمام قسطنطين بالعقيدة كان ضئيلاً، فقد قام بعد مجمع نيقية بثلاثة أعوام بتعديل آراءه وأعلن عفوه عن آريوس وأتباعه، بل أصبح من مؤيدى أعداء مجمع نيقية، وفى الحقيقة لم يعمد إلا عام ٣٣٧م وهو على فراش الموت، وقام بتعميده أسقف آريوسيًا.

* * *

المذهب القسطنطيني

لقد كان عهد الإمبراطور قسطنطين ميلادًا لمرحلة جديدة فى تاريخ الكنيسة التى كانت حتى ذلك العصر تعانى الاضطهاد. بيد أنه بتولى قسطنطين الإمبراطورية، أصبحت الكنيسة مؤسسة من مؤسسات الدولة، ولذلك يقال أن مجمع نيقية كان ميلادًا للمذهب القسطنطينى.

---

(١) راجع كتاب الأب سيجوندو بعنوان «مسيحية بولس» ص ٣٠٤.

فقد كـان قسطنطين يُعنى بأن يصبح «الأساقفـة من بين موظفى الدولة وفى خدمتها»[1] وذلك بمنحهم، بلا جدوى حق التحكيم فى القضايا المدنية والقضاء على المذاهب الوثنية التى كان يطبق عـليها عقوبة الإعدام منذ عـهد الإمبراطور ثيودوس.

وهكذا، امـتلكت الكنيسـة جميـع مـقاليـد أمور الإمـبراطورية بين يديهـا وتحكمت فى مصـائرها حتى أنهـا أصبحت بعـد ذلك، خليفة الإمـبراطور فى الحكم، عندمـا استـولى الغوصـيون على رومـا فى عام ٤١٠م وأسقـطوا آخر إمبراطور رومانى.

إن مسـيحية بولس التى كـانت تسيطر على السلطة الحقـيقية بعـد أن كانت تعانى الاضطهـاد، غدت قوة تطبق الاضطهـاد على الأديان والمذاهب الأخرى بعد أن كانت تكتـفى بحرق كتب الهرطقة، ولهذا السـبب لم نعثر على أفكار آريوس أو مارسيون إلا ما تبقى من أقوال اختارها أعداؤهما.

ولنذكر مثالاً يعد من الأمثلة البارزة على العراقـيل التى وضعها مجمع نيقية فى طريق الإيمان:

إن الروح القدس فى الإيمـان المسيـحى ليست وجوداً بل قـوة تكمن داخلنا وتدعونا إلى التـفوق على الذات. بيد أنه بعـد مجمع نيـقية أصـبحت الروح القدس تترجم بكلمـة «لوجوس» التى لا تعنى فى اليونانية سـوى تطبيق العقل على كل الأشياء، كما لو أن الله لا يعلو مفاهيمنا وقدراتنا العقلية.

ففى نيقـية، كان الشعب يستـخدم مفردات يونانيـة للإشارة إلى الله، بينما معنى هذه الكلمات الحقيقى ينكر وجوده.

فقد تمت ترجـمة كلمة «Prosopon» اليونانية أو «Persona» اللاتينية على أنها «شـخص» فى حين أن الكلمـتين لهـما معنى واحـد وهو «قناع». إن هذا

---

(١) راجع كتاب الأب سيجوندو بعنوان «ما هى العقيدة؟» ٢٨٦.

المعنى يخالف الباطنية الإلهية للشخصية الإنسانية كما يصورها الفكر المسيحى. وهكذا أصبح يسوع والرب وحدة جوهرية مشتركة طبقًا للترجمة الحرفية للكلمة اليونانية «homoousios» التى يعود أصلها إلى المفهوم الأرسطى لكلمة «ousia» والتى ترجمت إلى اللاتينية بكلمة «substantia» أى ما وراء الظواهر. وقد نتج عن ذلك الكلمة الفـرنسية «substance» وتعنى «الجوهر» وهى المطابقـة للكلمة اليونـانية «hypostasis». إن جـميع هذه الكلمـات تخـالف فى الواقع المعنى الدقيق لكلمة «الرب» الخالق، المتعالى والذى تحول إلى أقنوم «hypostase» أى أحد أركان الثالوث المقدس. إن استخدام هذه الكلمة بهذا المعنى يحقق الغرض المطلوب، وهو إضفاء الغموض على معنى كلمة الرب لغير المتخصصين فى فقه اللغة.

إن البحث عن معنى كلمة «الرب» يستوجب استبعاد جميع المفردات اليونانية عن «الوجود».

لقد ذكر لى يومًا الأب دانييلو، المتخـصص البارع فى التاريخ للكنيسة وقبل تنصيـبه كردينالاً قـائلاً: «إن كل هرطقة العصـور الأولى للكنيسـة، نبعت من محاولاتنا استخدام اللغة والثقافة اليونانيـة من أجل ترجمة تجربة مسيحية غريبة تمامًا عن تلك اللغة وعن تلك الثقافة».

ومن هنا نشأ هوس الجـدل بين المسيـحيين واليـهود والمسلمين. فـالمسلمون يتهمون المسيـحيين بتثليث الله. قد يكون هذا الاتهام حقيـقيًا، خاصة فى نظر الديانة اليـهودية والإسلام، وهمـا ديانتان توحـيديتان.

* * *

مجمع نيقية
مولد لاهوت السيطرة

لقد ساد فى عهد الإمبراطور قسطنطين الذى استمر من عام ٣٠٦م إلى ٣٤٣م، نوعًا من الإرهاب كان يمارسه رجال الشرطة. فقد كانوا يميزون الجنود وعمال المصانع فى الدولة بوسمهم بالحديد الساخن. أما الإمبراطور قسطنطين فقد قتل صهره وأخوة زوجته الثلاثة، بالإضافة لابنه الأكبر (كريسبوس)[1] وزوجته الثانية (فوستيا).

فها هو الخليفة المبجل للنبى داود، وها هو «الملك المسيحى» الذى ترك بصمات واضحة فى تاريخ الكنيسة عندما جعل الديانة المسيحية الديانة الرسمية للدولة.

ومنذ ذلك الحين، بدأت المعركة الحقيقية بسلسلة طويلة من الاضطهادات والجرائم، والتى كان أبرزها الحرب التى شنها ضد الهرطقة فى إسپانيا والتى كانت حربًا عنيفة أدت توابعها إلى إعدام الأب بريستليان زعيم الحركة وأسقف آفيلا فى مدينة «تريف» بإيطاليا عام ٣٨٥م.

وفى أفريقيا، لم يتردد القديس أغسطينس أسقف قرطاج فى القرن الرابع الميلادى بمساندة من القديس إمبرسيوس أسقف ميلانو، فى اللجوء للقوات الرومانية من أجل بث الرعب وإبادة المسيحيين، ولا سيما أنصار الحزب الدوناطى والثوار من العمال الزراعيين فى شمال أفريقيا.

وفى عهد الإمبراطور ثيودوس صدر مرسوم بمنع قتل الأطفال، وفى عهده أيضًا صدر الأمر بحرمان ونفى الجنود الذين يطبقون المبدأ الإنجيلى «لا تقتل» بمقتضى القانون الثالث المقدس الذى أصدره مجمع آرل عام ٣١٤م.

(١) قتل قسطنطين ابنه الأكبر كريسبوس عام ٣٢٦م، أى بعد عام من مجمع نيقية.

أما الأسقف نيسطوريوس الذى رفض اعـتبار مريم العذراء «أم الرب»، فلم يتم عزله فحسب، بل إن القديس سيريل الذى كان من أنصار الأرثوذكسية، قد حصل على أمـر بنفيه واستبـعاده لمدة أربع سنوات فى الصحراء المـصرية حيث توفى عام ٤٥٠م.

وفى عام ٤٥٣م، تم إدانـة زعيم حركـة الهرطقـة وزعيم مـذهب الطبيـعة الواحدة للمسيح والمعارض للأرثوذكسية، والذى رفض تأييد أى سلطة دينية لا تؤمن بالإله الواحد ولا تقر بواحدانية الرب. وقـد ذهب الشعب آنذاك متضامنًا معه، فتم إرسال الجيش الرومانى من أجل القمع الوحـشى للمقاومة الشعبية. بيد أن هذا الاتجاه القمعى لم يستطع تقويض هذا المذهـب التوحيدى، فقد امتد تأثيره إلى النوبة وجنوب آسيا.

إن تأصل مذهب الطبـيعة الواحدة فى المنطقـة العربية كان له أكـبر الأثر فى إنتشـار الإسلام فى هذه المنطقة، وتجـاوب الشعب معـه الذى لم يجد فى هذه الديانة أى غرابة. كما أن انتشار المذهب الآريوسى فى إسـپانيا قد ساعد وسهل دخول الإسلام فى تلك البلاد، وذلك بسبب الإيمـان الموحد المشترك بأن يسوع كان نبيًا عظيمًا ولكنه ليس الله.

من اللافت للنظر أن الإسـلام كان لفتـرة طويلة ينظر إليه علـى أنه هرطقة مسيحـية. وهذا ما عبر عنه يوحنا الدمشقى فـى الفصل (١٠١) من كتابه عن «الهرطقة». كما أن دانتى، فى القرن الثالث عشر الميلادى، فى كتابه «القصيدة» وخاصـة الأنشودة الثـامنة والعشرين بعـنوان «الجحيم» اعـتبر مـحمـدًا ضمن المنشقين، ووضعه فى دائرة المنشقين مع الباب بونيفاسيوس الثامن.

إن هذا الفكر السياسى لبولس، الذى كان موافقًا لهوى السلطات، سواء فى عهد الإمبـراطور أغسطينس أو فى عهد قسطنطين، قد دفع الكنـيسة إلى تطبيق سياسـة شمولية وقمـعية تهدف إلى إقـرار سلطتها المطلقة، ليس على صـعيد العقيدة لفـرض مذهب دينى مطلق فحسب، بل أيضًا على الصعـيد السياسى.

فقد أصبحت الكنيسة هى المتحدثة باسم الإمبراطورية الرومانية ليس باعتبارها ممثلة لأورشليم، هذه المدينة التى شهدت استشهاد وموت يسوع ولكن باعتبارها ممثلة لروما عاصمة الإمبراطورية الرومانية. وقد كان أبرز مثال على ذلك، النزاع الذى نشب بين جماعة الإكليروس والإمبراطورية والذى استمر لقرون طويلة.

لقد كتب القديس توماس الإكوينى فى القرن الثالث عشر الميلادى إلى هوج الثانى قائلاً: «إن الحكومات العلمانية يجب أن تكون تابعة لحكومة الكنيسة».

إن هذا الادعاء الثيوقراطى الخاطئ[١] قد ساعد، بل كان عنصر الضمان للجرائم الكبرى التى ارتكبها القادة السياسيون فى الغرب، سواء بالتزام الصمت إزاء هذه الجرائم أو بالتواطؤ معها. ومن أمثلة هذه الجرائم البشعة الحروب الصليبية ضد المسلمين، الاضطهاد الوحشى للبروتستانت، وإبادة الهنود الحمر فى أمريكا، وتجارة العبيد فى إفريقيا، ثم فى القرن العشرين التعاون مع الفاشية.

إن الخطاب البابوى بعنوان «مع الأحزان» Mit Brennenger Sorge قد أدان قولاً فقط التفرقة العنصرية، بينما كانت الاتفاقية التى عقدها البابا مع هتلر لا تزال قائمة.

وبمقتضى هذه اللغة المزدوجة، فقد كتب الأساقفة الألمان بالإجماع، فى مدينة فولدا يوم ٢٠ أغسطس عام ١٩٣٥م خطاب تأييد لهتلر قالوا فيه: «ليساعد الرب الفوهررمن أجل إنجاح هذه المهمة الضخمة» (أى مناهضة الشيوعية). ثم أضافوا فى خطاب آخر بتاريخ ٢٤ ديسمبر عام ١٩٣٦م قائلين: «إن الأساقفة الألمان يعتبرون من واجبهم مساندة زعيم الرايخ فى هذا الصراع وذلك بكامل لديهم من وسائل فى المجال الدينى».

---

(١) إن هذا الادعاء يعتبر خاطئًا لأن طبقة الكهنة الرومان والذين يعتبرون أنفسهم فى خدمة الدين المطلق، أرادوا فرض سلطتهم على العلم من منطلق أنهم يتحدثون باسم الرب.

أما فى إسبانيا، فـقد أيد كبير الأساقفة، الكاردينال جومـا باسم الأسقفية، الانقلاب الذى قام به فرانكو، فقد رأى فى نـضال فرانكو كما كتب فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٣٦م «روح حرب صليبية حقيقية من أجل الدفاع عن الديانة الكاثوليكيـة». وفى العاشـر من أكتـوبر عام ١٩٣٧م أضاف فى خـطاب آخر قائلاً: «إن طبقة الكهنة الإسپان تؤيد بحماس حركة الفداء الإسپانية المجيدة».

لقد تورطت الأسـقفيـة الفرنسيـة هى الأخرى فى هذا الاتجاه نفـسه وذلك بإعلان تضامنها مع السلطة القائمة. ففى مدينة ليون، حدد كبير أسقافة فرنسا، الكاردينال (جارليـيه) Gerlier مهـام الكنيسة مـؤكدًا فى يوم ١٥ نوفـمبر عام ١٩٤٠م «أن هذا الزعيم منـحة من الرب لصالح وطننا» وفـى يوم الخامس من فبراير عـام ١٩٤١م، وجهت الأسقفية الـفرنسية بأكملهـا، باستثناء الكاردينال سالياج، أسقف مدينة «تولوز»، رسالة جماعية إلى البابا «بيا الثانى عشر» قالوا فيها: «إننا نعلن جميعًا ولاءنا التام للسلطة القائمة». وفى الرابع والعشرين من يوليو فى العام نفسه، بعثوا برسـالة أخرى قالوا فيها: «إننا نشجع المؤمنين على مساندة السلطة القائمة فى عملية الإصلاح، بل والتعاون معها دون خوف».

وبعيـدًا عن الكنيسة الرومانيـة الرسمية، أعـلن عدد كبيـر من الكاثوليكيين وبعض القساوسة رفضهم لهذه السياسة التضامنية.

لقد شهد أحد القساوسة الفرنسيين فى الجريدة السرية «الدفاع عن فرنسا» فى عددها الخامس والـثلاثين قائلاً: «لقد كـان لكهنة الكنائس فى المدن دور أيضًا فى هذه المقاومة الشريفة مثلهم مثل باقى قطاعات الشعب... إن هذا الاتصال المباشر مع شعب فرنسا قد أساء للأسف لكبار رجال الكنيسة».

إن إحياء هذا الماضى الـبعيد، والذى لا يزال حيًـا حتى يومنا هذا، لم يكن الهدف منه فتح الجراح القـديمة، لكن فقط توضيح أن جميع طبـقات الكنيسة الرومانية ظلت على إخلاصـها، طوال ألفى عام، لفكر القديس بولس ، على الرغم من أن ملايين من المسيـحيين قد استمروا فى إخـلاصهم لرسالة يسوع،

فدون العودة إلى عصور الاضطهاد الأولى «للهرطقـة» بعد قرارات مجمع نيقية عام ٣٢٥م، أو عهـد الحروب الصليبيـة ومحاكم التـفتيش، يتعـين علينا عدم إغفال الذين جاهدوا وسبحوا ضـد تيار الفكر القسطنطينى، واهبين حياتهم من أجل التوحد مع يسوع الحى دائمًا والذى سبق أن وهب حياته من أجلهم، كما ذكر الأب لابرتونيير قائلاً: «من أجل قضية المصير ومن أجل مبدأ ونهاية الحياة كان يجب أن يعيش».

بيد أن هذا التـيار المناهض، كـان دائمًا بعـيدًا عن الكنيسـة الرسمـية، بل وضدها، لأن إيمان هؤلاء كان يتعارض فى الغالب مع العقيدة السائدة.

***

مسيح بولس ليس هو يسوع

من أجل مناهضة فكر بولس، نشأ هذا التيار السرى الذى لم ينفك يحيا ويساعد الأجيال المسيحية على الاستمرار فى الحياة من أجل أن تكون شاهدة على الحياة الحقيقية ليسوع، ضد روما وأحبارها وجميع أساقفها.

وفى هذا الصدد، يتعين علينا التذكرة بقضية «جواشيم دى فلور» الذى أدانه مجمع «لاتران» عام ١١٧٩م بسبب تكوينه فى إطار «الإنجيل الأبدى» مملكة روحية دينية خارج نطاق الكنيسة. ولنذكر أيضًا «سان فرنسو داسيز» الذى تجرد من كل ثروة أبيه، تاجر الأقمشة الثرى فى مدينة أسيز، وأصبح «الفقير خادم الفقراء». وقد خالف التقاليد الإقطاعية للأديرة التى لم يكن رؤساؤها، مثل الأب «كلانى»، يخرجون مطلقًا دون موكب حراسة مكون من مائة فارس، وذهب إلى دمياط، فى خضم المعارك الصليبية، وعبر الحاجز الحديدى المنيع الذى أقامته الجيوش الصليبية، وذلك من أجل مقابلة السلطان وهو مرتديًا ملابسه الرثة.

أما يوحنا الصليبى فقد حكم عليه بعدم مغادرة محل إقامته وذلك بسبب محاولته تخطى عصر «الليل الدامس» والصعود لجبل الكرمل، متجاوزًا الطرق التقليدية.

وهناك أيضًا «باسكال» الذى كان الإيمان بالنسبة له قضية مثيرة القلق، لذلك فقد عاش حياته مثل «منعزلى» بورت رويال، بعيدًا عن أى تواطؤ مع السلطات الكنسية.

منذ قرون طويلة وحتى اليوم، لا يزال آلاف المسيحيين، ممن يسكن قلوبهم

يسوع، يذهبون إلى الكنيسة من أجل تناول القربان المقدس والحصول على البركة من أيادى الكهنة الذين يعتقدون، باعتبارهم أصحاب أفضل إيمان فى العالم، أن إيمان بولس هو نفسه إيمان يسوع.

ولكن، رغم كل هذه البلبلة بين حياة يسوع وعقيدة بولس، والتى استمرت ألفى سنة، فإن بذرة إيمان جديدة قد بدأت تنبت شيئًا فشيئًا، ولكن ليس فى العالم الغربى. هذا الإيمان الجديد ليس إيمانًا رومانيًا فحسب، بل إيمان عام أطلق عليه الإيمان الكاثوليكى.

وقد ازدادت قوة هذا التيار الكاثوليكى حتى أنه أصبح يشكل مقاومة قوية استطاعت كما كنا نأمل، التصدى للأزمات الكنسية الكبيرة التى نشأت فى النصف الثانى من القرن العشرين. لقد تسببت هذه الأزمات فى إدانة «القساوسة العمال»، بالإضافة للأب «تيلهارد دوشاردن» الذى صدر ضده مرسومًا رومانيًا مقدس يوم السادس من ديسمبر عام ١٩٥٧م مقررًا الآتى:

«يتم سحب جميع كتب الأب «تيلهارد دوشاردن» من المكتبات والمؤسسات والندوات الدينية، وتمنع ترجمة كتبه إلى اللغات الأخرى».

لقد كان أكبر مثال على محاربة الكنيسة لهذا التيار الجديد، هو الحرب التى شنتها بالتعاون مع وكالة المخابرات الأمريكية (CIA) ضد لاهوت التحرير (فى أمريكا اللاتينية) الذى يعد من أكبر الحركات المبشرة بالأمل فى عصرنا الحالى، وقد بدأت هذه الحرب فى أمريكا اللاتينية ثم امتدت لتشمل إفريقيا وآسيا.

ومن جانبى، فقد بدأت بالتعاون مع أنصار الأب «تيلهارد دوشاردن»، بتنظيم «حوارات دولية» وقمت أيضًا بكتابة تمهيد حماسى لكتابه بعنوان «الظواهر الإنسانية» والذى كنت قد حصلت على ترجمة له فى موسكو.

***

الكنيسة تعتنق ديانة الإمبراطورية الرومانية
الديانة اليهودية المسيحية

فى عام ٣٢٥م، عقب مجمع نيقية، لم يكن الإمبراطور قسطنطين هو الذى اعتنق المسيحية، بل كانت الكنيسة هى التى اعتنقت العقيدة الرومانية، فى البداية بهدف إظهار الخضوع للإمبراطورية، ثم السيطرة عليها فى النهاية. فقد طبقت الكنيسة جميع لوائح السلطة الإمبراطورية، فأصبح الأساقفة حكامًا حقيقيين، ولقب البابا بالحبر الأعظم وهو اللقب الذى كان يطلق على كبار الكهنة الوثنيين.

إن التاريخ الدينى للكنيسة يسيطر سيطرة تامة على التاريخ الغربى. فأوروبا لم يكن لها وجود خارج إطار هذه الكنيسة. وستظل دائمًا وأبدًا داخل هذا الإطار الذى لن تستطيع الخروج منه، حتى بعد أن وقعت معاهدات ويستفاليا عام ١٦٤٨م، وتفككت أوروبا إلى أمم كثيرة. ولن تجدى أيضًا محاولتها إقناع العالم أن بإمكانها القيام بنهضة أو قيامه حقيقية باستبدال الكنيسة بالسوق الموحدة التى يسيطر عليها الدولار وتابعه (اليورو).

إن التاريخ الأوروبى أو بمعنى أصح التاريخ المسيحى الذى أدى إلى نشأة أوروبا، تاريخ دموى حافل باضطهادات الهرطقة التى ولغت فى الدماء والتعذيب الجسدى. فالقديس أغسطينس لم يتردد فى اللجوء إلى القوات الرومانية من أجل السيطرة ومقاومة أنصار الهرطقة (الدوناطية) الذين لم يقبلوا عودة القساوسة أنصار الاحتلال الرومانى إلى البلاد مرة أخرى، يالإضافة لمقاومة الثوار الزراعيين الذين أرادوا إلغاء الامتيازات القديمة للمحتلين الرومان ومهاجمة الامتيازات التى حصل عليها ملاك الأراضى الزراعية الجدد.

ومن المؤسف أن نرى فى هذه المعارضة الحقيقية للكنيسة، مجرد معارضة داخلية، أو بعض التجاوزات غير المرغوب فيها.

فقد كان هناك بالفعل تيارات معارضة: فمن ناحية كانت الكنيسة المهيمنة على الغرب، والتى ازداد سيطرة فكر بولس عليها بدءًا من مجمع نيقية حتى ظهور كتب التعاليم المسيحية عام ١٩٩٢م، ومن ناحية تنافس مع السلطات القائمة، أو قد نقول أيضًا دون توافق مع الفكر القسطنطينى الرسمى .

فقد كان هناك إذن فرع من المؤمنين يؤمن ب «السلالة المسيحية الأولى» كما كان يقول الأب «تيلهارد دوشاردن».

أننا لن نستطيع أن نذكرهم جميعًا، لأن هناك آلافًا من المسيحيين أرادوا أن يستمروا على إخلاصهم لما أسماه الكردينال دانييلو فى كتابه «تاريخ الكنيسة» بالمسيحية الآسيوية، مذكرًا أن مواطن ازدهار المسيحية ومركزها الحقيقى كان طوال الخمسة عشر عامًا الأولى لظهورها، إنطاكية بسوريا، عندما مر بولس بهذه المدينة وأطلق على اتباعها لأول مرة اسم «المسيحيين».

وقد ذكر الأب دانييلو فى كتابه (ص ٥٣) بشىء من التحديد قائلاً: «إن هذه الكلمة (المسيحية) كان لها صدى سياسى». فهو يقصد بالطبع، أنصار «خريستوس» هذا اللقب اليونانى الذى لا يشير إلى يسوع التاريخى، بل إلى من كان يقوم بوظيفة «المسيح» فقط تطبيقًا للشريعة اليهودية.

إن هذا الوفاء ليسوع ورسالته السامية قد ظهر قبل وبعد مجمع نيقية، هذا المجمع الذى يعد علامة بارزة فى التاريخ المسيحى، بل وكل تاريخ أوروبا والذى كتب عنه الأب «بولاراند» قائلاً: «إذا كان مجمع إنطاكية قد أدان كلمة «omoousios» فقد كان ذلك بسبب فهم بولس الخاطئ لمعناها (ص٢٦٥) واستخدامه لها من أجل إنكار التفرقة بين الابن كشخص والأب (ص٣٥١)».

***

لقد قام دعـاة الحروب الصليبيـة، مثل القديس برنارد، باسم هذا الحكم التـعسفى «تلك إرادة الرب» بالدعوة لإبادة المسلمين فى القدس علـى يد «المسيحى» جود فرى دوبويون.

كما قامت إيزابيلا «الكاثوليكية الورعة» بالمطالبة بـإقامة محاكم التفتيش ضد اليهود ومسلمى إسـبانيا. بالإضافة إلى ذلك، فقد قام أحـد (البابوات) متخذاً من التبـشير الـدينى مبرراً، بتـقسيم أمـريكا اللاتينية بين المسـتوطنين الإسـبان والبرتغال.

وبصفـة عامة، وبعيـداً عن آلية سياسـة الأديان، فإن «أساتذة القانون»، فى جـميع الأديان التى يُطـلق عليـهـا أديـان سـمـاوية منزلـة، ينقلون إلينا أحـكام ونواهى تمت صياغتها منذ قرون بعيدة على يد مشرعين كانوا مكلفين بالاستجابة لمطالب زمانهم. ولكنهم لم يذكروا لنا ماذا يجب علينا «خلقه» من أجل بناء مستقبل للبشرية ذا طابع إنسانى وإلهى.

فباسـم هذه الأخلاق الدينية الغريبـة، قام الشعب الأمريكى، الذى حـولته وسائل الإعلام لشعب وديع، بنشر هذه الأيديولوجية، وصـوتوا جميعًا لصالح قـاتل ومنفذ لـسلسلة من أحكام الإعـدام، والذى تم فى عهـد حكمـه لولاية تكساس تنفيذ حكم الإعدام فى عشـرة أشخاص خلال ثلاثين يومًا، حتى وإن لم تثبت إدانتهم، بالإضافة لـ ١٦٤ آخرين قد تم إعدامهم فى ستة أعوام خلال فتـرة حكمه لولاية تكسـاس. إن طرح بعض الشرائع الثابتـة منذ آلاف السنين للمناقشة، لا يعبر عن أزمة فى الإيمان بقدر ما هو التعبير عن أزمة فى الثقافة التى سادت فيها هذه العقائد حتى الآن.

لقد اتسعت الفجوة بين التعاليم المسيحية والرؤية الحالية للكون، فأصبح من الصعب السيطرة عليها.

فكيف يجعل إله خـالق من الأرض -هذا الجزء الضئـيل من الكون- المحور الوحيد لاهتماماته والمركز النمـوذجى الوحيد لكل أشكال التصنيف: بين السيد

والعبد أو بين الخير والشر، كما لو أن «دراما الكون التفاؤلية» يجب أن تدور فقط على هذا المسرح الضئيل الحجم لدرجة السخرية؟.

إن الأسطورة الأصلية تنطوى أيضًا على ادعاءات خطيرة، فهى تتخيل الرب أمير مستبد، متقلب الأطوار ومتحيز. فتمثله الأسطورة يشير إلى «شعب مختار» ويمنحه سلطة التدمير والطرد والسيادة على كل الشعوب الأخرى.

إن تلك الصلاحية قد استولى عليها كل من ادعوا بأحقيتهم فى السلطة. ليس اليهود فحسب، بل أيضًا بعض «النصارى والمسيحيين» الذى اعتبروا أنفسهم ورثة هذه السلطة، وجاءوا من أجل إضفاء القدسية على حروبهم الصليبية وعلى محاكم التفتيش وعلى حكوماتهم الإلهية. ثم جاء «الغرب» وحمل الراية وقام بالاستيلاء على السلطة وفتت العالم إلى قوميات صغيرة. وبعد تفكك العالم المسيحى، عندما تم توقيع معاهدات ويستفاليا، جاء كل أمير ليعلن نفسه ممثلاً لهذا الكون السامى ومنافسًا شرسًا لجيرانه. وفى نهاية الأمر، قام باستيطان أرض الآخرين، وبارك هذا الاحتلال وكل ما ارتكبه من مذابح واغتصاب وسلب ونهب واستبعاد بأن أطلق على هذه الأفعال اسم «البشارة الإنجيلية».

***

الرومنة بعد التهويد والهلننة

فى عهد الإمبراطور قسطنطين، كان فكر مجمع نيقية بالطبع موافقًا للأهواء السياسية للنظام السائد فى الإمبـراطورية الرومانية. فطبقًا لهذا الفكر أصبح الله هو خالق لعالم ثابت ومـستقر لا يجوز تغيـيره، بما أن الله أراد هكذا، لذا فإن أى محاولة لتـغييره تصبح انـتهاكًا للمحـرمات. كما أن الإمبـراطور قد أصبح العامل الضامن لهذه الأبدية الكونية ولاستقرار النظام القائم.

منذ زمن طويل، كان من المعروف أن المكان الوحيد الذى استطاعت الحضارة الإنسانيـة أن تجد فيـه أرضًا خصبـة لازدهارها، هو الضفاف الشـرقية للبـحر الأبيض المتوسط.

ففى القرون الأولى لانتشار المسيحيـة، كانت الإمبراطورية الرومانية هى مقر انتشار هذه الديانة. فقد أشار (دانتى) فى دراسة بعنوان «دراسة فى الملكية» إلى إحصاء البشـر فقال: «بهذه الكلمات نستطيع أن نفهم بوضـوح أن القضاء العام للعالم كان بين أيدى الرومان» ثم أضـاف قائلاً: «إننى أؤكد، إذن، أن الشعب الرومانى قـد حصل - فوق جمـيع البشر - على الإمبـراطورية». وجرى هذا الإحصاء الأول عندما كان كيرينيوس حاكمًا فى سوريا (لوقا ١: ١-٢).

وبعـد انقضـاء عهـد قسطنطين، عندمـا فـرضت الكنيسـة سيطرتهـا على الإمبراطورية الرومانيـة، اعتبرت نفسها بذلك المهـيمنة على العالم كله والسلطة الوحيدة المخـولة بتقديم مفهومـها الوحيد عن الإيمان لجمـيع البشر. ومما يدل على ذلك أن أحد فصول كـتاب التعاليم المسيحـية لعام ١٩٩٢م يحمل عنوان: «لا خلاص بعيدًا عن الكنيسة» ص ١٨٦.

فإذا كان الله هو ذلك الحاكم القادر الذى أعطى أوامره لموسى ثم من بعده ليسوع، بإبادة الشعوب الأخرى، فهل كان يسوع حقًا ابنًا لهذا الرب؟

إن ما يعتبرها البعض العقيدة اليهودية المسيحية هى، عن حق، عقيدة مشوشة ومغلوطة، لأنها تعتبر أن ديانة بنى إسرائيل هى نفسها ديانة يسوع. إن ذلك كان بالنسبة للويس الرابع عشر يعد شيئًا طبيعيًا، لأنه كان يعتبر نفسه حامى المملكة المطلق. فهل كان كتاب «خطاب عن التاريخ العام» قد تم تأليفه دفاعًا عن يسوع كما كان يقول مؤلفه بوسويه؟ وهل كان يسوع هو فقط «مسيح إسرائيل»؟

إن كلمة «الطاعة» هذه الكلمة الغالية بالنسبة للقديس بولس، كما كانت بالنسبة لبوسويه والإمبراطورية الرومانية، لم يستخدمها يسوع مطلقًا فى حديثه. بيد أن كتب التعاليم المسيحية قد استخدمتها بل وضخمت من معناها عندما استشهدت بأقوال بولس عن وجوب الخضوع للسلطة مهما كانت، «حتى لو كانت هذه السلطة نيرون» كما ذكر القديس أغسطينس.

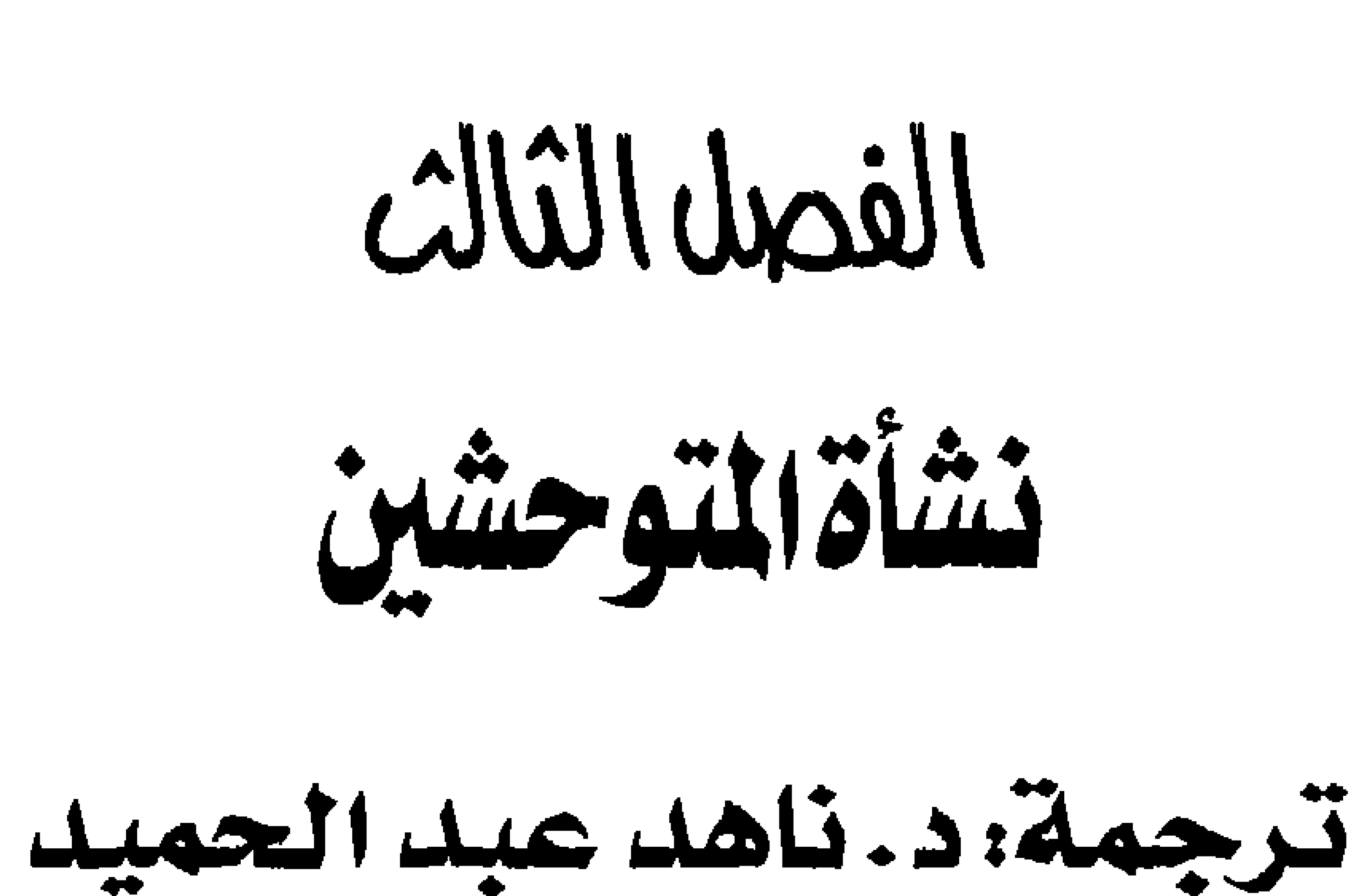
***

وهناك عقيدة أخرى، للأسف تلقيناها أيضًا عن أجدادنا، وهى أن «الثقافة الغربية» ليست لها سوى مصدرين: المصدر الأول الثقافة اليهودية المسيحية والمصدر الثانى الثقافة اليونانية الرومانية.

إنها بالطبع رؤية قصيرة النظر، أو فكرة وهمية أيدتها بعض النظريات الجامعية القديمة.

لقد شعرت كثيرًا بالآسف لأن الله أصبح ينظر إليه على أنه كلمة وليس فعلاً.

***



الفصل الثالث

نشأة المتوحشين

ترجمة: د. ناهد عبد الحميد

نشأة المتوحشين

نشأت نهضة القــرن السادس عشر- كما تم الاتفاق على تسميـتها فى التاريخ الغربى من إسهامات العالم أجمع فى الحضارة الأوروبية (وهو الأمر الذى طالما ما نخفيه عن طلبة مدارسنا الأوروبيــة، تحت زعم أن ليس لهذه النهضة إلا مصدران اثنان فقط هما: المصدر اليهودى - المسيحى، والمصدر اليونانى- الرومانى).

وقد ظل «طريق تجارة الحرير» لعدة قرون طريقًا ليس فقط لجلب المعادن والأحجار الثمينة، ولكن أيضًــا المحصولات الزراعية. ولقد اسـتطاعت أوروپا بفضل البوصلة- التى اخترعهــا الصينيون- الإبحار فى أعالى البحار، وبالتـالى التوصل إلى ما أطلقت عليه «اكتشافاتها العظيمة»، وتمكنت كذلك بفضل البارود الوارد من الصين من تحقيق غزواتها وانتصاراتها وتوطيد سيطرتها الاسـتعمارية. كما استطاعت تعميم الزراعات وتحقيق الإصلاحـات بفضل اختراع صناعة الورق والطباعة فـى الصين قبل جوتنبرج بعدة قـرون. كذلك نجحـت بفضل اتباع نموذج العـرب والأندلس فى توحيـد الشرق والغـرب، واحتـرام الأديان الثلاثة (دون أى تمـييـز طائفى) وتطبيـق المنهج التجـريبى وتطوير العلوم.

«والمعجزة اليونانية» هى بحق المصدر الفعلى للنهضة. إن نشأة مجتمع يطغى عليه التنافس والتـزاحم بين الإنسان على السوق، أدى إلى ظهـور أيديولوچية ساعدت على إرساء هذه الممارسة وغيّـرت المفهوم القديم للعلاقات بين الإنسان والطبـيعة وبين الإنســان والإنسان وبـين الإنسان وربه. فــالعلاقة بـين الإنسان والطبـيعة- وهــى إحدى خصــائص عصــر النهضــة- هى علاقــة بين منتــصر ومهزوم. والعــلاقة بين الإنسان والإنسان هى عــلاقة شخصيــة للغاية، من هنا ظهرت فئة رجال الأعمال بالمعنى الإيجابى والسلبى للكلمة. إن هذه الرغبة فى

تحقيق المنفعة والسيطرة، تماثل إرادة المغامر الإسبانى الذى لم يتردد فى عبور حدود العالم المعروف ونهب القارات والحضارات. كما أدت النهضة كذلك إلى نشأة علاقة جديدة بين الإنسان وربه. وفى هذا الصدد يظهر التساؤل الكبير. فهذه العلاقة هى بالتأكيد من أكثر المظاهر إيجابية لهذه النهضة، إذ أثارت قضية الإنسان على عكس ما كان سائدًا فى العقائد القديمة.

وبدأت السيطرة التقنية على الطبيعة، مع كل ما ينتج عن ذلك من مظاهر إيجابية وسلبية. فالإنسان ذو الهدف الأوحد المنغمس فى العقلانية السقراطية (فلسفة قائمة على العقل فى ميادين المعرفة والأخلاق) أكد ذاته فى مغامرة النهضة. واتسم الجانب العملى لهذه العقلانية بالرغبة فى تحقيق المنفعة وفرض السيطرة التى تميز الرأسمالية الوليدة.

وهكذا خلف المذهب الذى ينادى بالاستسلام للعقلانية السقراطية، مذهب ضمنى آخر يقوم بالحث على تلك الرغبة فى تحقيق المنفعة وفرض السيطرة الرأسمالية.

وأصبحنا نواجه فى الربع الأخير من القرن العشرين أزمة عميقة فى الثقافة الغربية، نشأت فى بادئ الأمر مع ما أطلقنا عليه النهضة. وهى ليست بظاهرة ثقافية ولكنها ظاهرة تجمع بين الرأسمالية والاستعمار.

رأسمالية، أى مجتمع أدى إلى ظهور الإنسان ذى الهدف الأوحد، الذى يتوقع أن يؤدى التطور اللانهائى للعلوم والتكنولوچيا إلى إشباع رغبته فى السيطرة والمنفعة.

واستعمار، أى مجتمع يزعم تحويل الإنسان الآلى إلى المعيار الذى يتم به تقييم كل شىء، والمحور الوحيد للمبادرة التاريخية والمبدع الوحيد للقدرة مستنكرًا فى ذلك ومدمرًا كل الثقافات غير الغربية، وجميع الأنماط الأخرى للتفكير والحياة.

فى ظل هذا المجتمع الذى أصبح يتميز بالديناميكية وليس بالجمود، المجتمع الذى يطغى فيه التغيير على الثبات، نشأ مفهوم التنمية. والتنمية بمفهومها القديم هى تنمية الفرد أولاً وازدهار طاقاته الجسمانية والفكرية والروحية، أى نمو جسده وقوته وقدرته على التطور، ونمو لقدراته فى المشاركة الخلاقة، تحسين الاختراعات الإنسانية القديمة والمعاصرة التى تبنى الثقافة والقدرات العقلية وعلاقات المحبة وحب الآخرين.

إن المشاركة المسئولة لكل فرد فى المشروعات المشتركة وفى عمل خلاق جوهرى ومستدام، يفتح المستقبل أمام آفاق لانهائية تكشف عن الجانب الرائع فى الإنسان.

وتستلزم تنمية الإنسان تطوير الهياكل والمؤسسات التى تسمح بالتالى:

- إنتاج وتوزيع الحاجات المباشرة (الغذاء - المسكن- والملبس... إلخ) اللازمة لمتطلباته المعيشية، وتنمية احتياجاته الأخرى الثقافية والروحية.
- إقامة علاقات اجتماعية تعمل على إذابة الفروق العميقة والمواجهات العنيفة التى تستبعد من هو أكثر ضعفًا وتقضى عليه.
- توفير الحرية وتحمل المسئولية، وخلق وسائل لتنمية الشخصية تتلاءم مع تنمية كل أفراد المجتمع.

والتنمية - كما تطلق عليها مجتمعاتنا الغربية المعاصرة- يتم تحديدها وفقًا لمعايير معينة أحادية الجانب، واقتصادية صرفة: فهى تنمية نوعية للإنتاج والاستهلاك، لا تعتمد على إرادة الإنسان أو على خاصية من خواص الحياة. ويمكننا عقد مقارنة وتصنيف المجتمعات والشعوب اليوم انطلاقًا من الناتج القومى الإجمالى.

هكذا- وبعيدًا عن كل غاية إنسانية- فإن مختلف أشكال الحياة الاجتماعية لايمكن تقييمها إلا وفقًا للنمو الاقتصادى الذى يتم تحديده حسب النوعية

والفاعلية التقنية وحدها، حتى لو كانت مدمرة، ووفقًا للهيكلة الاجتماعية، حتى لو كانت تعسفية وقهرية.

هل غاية هذه التنمية إذن هو تحقيق المنفعة المادية الاستهلاكية أم تنمية الإنسان؟ علينا أن نختار.

واليوم، تتواجه البلدان «المتقدمة» و«المتخلفة» التى نطلق عليها بنفاق: البلدان «النامية»، فى حين أن التباعد بين الفئتين لا ينفك، على العكس من ذلك، فى الازدياد.

ودون اللجوء إلى تحليل مسبق للآليات التاريخية التى أضعفت معايير المقارنة وولدت مظاهر الخلل الاقتصادى المتزايد بين الغرب وبقية العالم، يمكننا باختصار القول إنه إذا كان حوار الحضارات - الذى يسمح بالتفعيل المتبادل للثقافات- محظورًا أو زائفًا، فقد أصبح مستحيلاً الخوض فعليًا فى هذا الحوار الآن.

ومن اليسير علينا البرهنة على النظرية القائلة بأن العلاقة التى تربط بين «التنمية» و«التخلف» هى علاقة جدلية، فكل منهما يهيئ لنفسه الظروف التى تلائمه وتساعده على النمو. **وبطريقة أكثر إيجابية نستطيع القول إن تنمية الغرب كان شرطها الأساسى هو نهب القارات الثلاث واستنزاف ثرواتها لصالح أوروبا وأمريكا الشمالية بالتبادل.** فالغرب هو الذى أدى إلى تخلف ما نطلق عليه العالم الثالث.

والتخلف هو التعبير عن علاقة استغلال بلد لبلد آخر[١]، بمعنى آخر فالتنمية والتخلف هما مكونان لنظام واحد ألا وهو النظام الرأسمالى. إن تكديس الثروات ونماءها (الذى نطلق عليه اليوم لفظ نمو) تم على عدة مراحل:

- إبادة هنود أمريكا بدءًا من القرن السادس عشر.

(١) هذا الاستدلال تم تناوله عدة مرات: فقد تناوله Walter Rodney عن أفريقيا متسائلاً: «كيف أدت أوروبا إلى تخلف أفريقيا؟». وهو يرتكز فى هذا الفصل من كتابه على دراسة Boran عن الهند وعلى دراسة عن أمريكا اللاتينية للكاتب Josué de Castro.

- تجارة العبيد التى كانت ضـرورية لاستغلال مناجم وأراضى أمريكا لخلوها من سكانها بسبب هذه الإبادة.

- القضـاء على العبودية بدءًا من الثـورة الصناعية (التى نشـأت بفضل هذا التكدس)؛ لأنه كان لايسمح أبدًا بتنفيذ التقنيات الجديدة.

- بداية «الاستـعمـار» - بالمعنى الصرف للكلمـة- أى السيطرة السـياسـية والعـسكرية على أفريقـيـا وأكبـر جزء من آسـيا وأمـريكا اللاتينيـة، لضمـان الاستـثمارات المربحـة للغاية فى الصناعة والتـجارة عن طريق فرض الأسـعار البخسة على الأيدى العاملة، والأسعار المرتفعة للمنتجات المستوردة.

وأخيرًا مـع تشكيل ونمو الشركات متـعددة الجنسيات، ظهـر نمط جديد من استغلال العالم الثالث، فهذه العلاقات لم تعد ثنائية بين البلد الأم والمستعمرة.

فالشـركات متـعددة الجنسـيات- وهى شركـات أجنبيـة داخل حدود الدول الوطنية- تنظم فى الواقع عـملية نهب، ليس فقط على المستـوى القومى ولكن على المستوى العالمى، معتمدة فى بعض الأحيان على القوى الكبرى (الولايات المتحدة على سـبيل المثال) التى تقوم بتـوجيه اقتصـادها وسياستـها، وتلجأ فى بعض الأحيـان إلى آلتها العـسكرية (كمـا هو الحال فى جواتيـمالا وفيـتنام أو العراق) كما تعـتمد فى أحيان أخرى على المؤسـسات الدولية التى تلعب داخل هذه الشركات دورًا حاسمًا.

جمعت النهـضة الغربية فى بادئ نشأتهـا بين الرأسمالية والاستـعمار، تلك النهضـة المقنعة وراء الفلسفة الثنـوية اليونانية (مذهب يقـول بأن الكون خاضع لمبدأين مـتعارضين أحدهمـا الخير والآخر الشـر)، وبخاصة فلسفـة أفلاطون، والمتخفية كذلك خلف الإصـلاح الدينى، وأبرز مثال على ذلك هو مبدأ انتزاع الأراضى من الكنيسة.

فنصف أراضى أوروبا كانت تتبع الكنائس الرومانية الإمـبريالية قبل أن يقوم

بانتزاعها منها كل من لوثر وكالفن، واعتقدت أوروبا منذ ذلك الحين أنها أصبحت تمثل مركز العالم.

ولقد تدفق الذهب والفضة من الهنود الغربيين، أى هنود أمريكا، نحو أوروبا، مما أدى إلى التوسع الهائل فى اقتصاد السوق. ولقد ازدادت كمية الذهب والفضة المصادرة إلى أوروبا بنسبة ٨٠٪ فى القرن السادس عشر، مما نتج عنه ارتفاع معدل الوفيات بين الهنود؛ بسبب الأعمال الشاقة فى مناجم المعادن النفيسة.

والأكثر أهمية من ذلك كان تدفق الثروات الغذائية من أمريكا إلى أوروبا، مما وضع حدًا لمجاعة العصور الوسطى، وأعطى دفعة لا مثيل لها لنسبة المواليد. فلقد أطلق ڤرناند برودال فى عام ١٩٨٢م لفظ «المحاصيل المعجزة» على البطاطس وعلى الذرة المكسيكية التى وصلت إلى أوروبا. كما ذكر أن البطاطس غطت ٤٠٪ من استهلاك الحبوب. أما فى أيرلندا - حيث بدأ تطبيق زراعتها - ارتفع تعداد سكانها إلى ثلاثة أضعاف.

عندما بدأ الأوروپيون فى استيراد القطن الأمريكى طويل التيلة، حققت صناعة النسيج الأوروبية تقدمًا ونهضة غير مسبوقة على حساب النساجين الهنود والعبيد القادمين من أمريكا لإنتاج هذا القطن.

إن أسطورة النهضة الأوروبية التى تخفى وراءها زوال صفة «الإنسانية»، أدت فى الواقع إلى سيطرة السوق وتفرده وإلى تقديس المال، وانقسام العالم عن طريق النهب الاستعمارى والاستقطاب المتزايد- حتى فى أوروبا- إلى قسمين: من يملك ومن لا يملك.

والانقسام يعنى تدمير الإرادة الجماعية لتحقيق الصالح الخاص. وقد كان هذا الانقسام واضحًا عند الرومان.

ولقد أبرزت العبقريات الكبيرة للعصر هذا التفكك والانحلال منذ بدايته:

- فشكسبير كان من أفضل من قاموا بفهم ووصف آليات تفكك عالمنا الحالى فى نهاية القرن العشرين.

- كان سرڤنتاس أفضل من قام بتحديد السبيل الوحيد لإحباط عملية التدمير هذه.

- ففى عام ١٦٠٥م أظهرت مسرحيـة «الملك لير» انهيار عالم يقوم المجانين فيه بقيادة العميان: «وهكذا سـوف يضمحل العالم الكبير حتى الفناء». والملك لير ما هو إلا «جزء من هذا الدمار»، ولقد طرح السؤال الحاسم: «من يستطيع أن يقـول لى من أنا؟»، يرد دون كـيشـوت فى نفس هذا العـام ١٦٠٥م، «أنا أعرف من أنا». وقد كـان هو الآخر فى خضم المأساة، ولكنه كـان يتعايش مع الإله، وكان لديه هدف ومعنى لـلحياة، وكان يعرف أن عـالم الرعية ليس هو العالم الحقيقى.

وعالم سرڤنتاس وشكسبير هـو نفس عالمنا، إلا أنهما عاشا عـصر النهضة بينما نعيش نحن عالم الاحتضار.

إن ما نطلق عليـه لفظ نهضة ما هو إلا رفـض لكل قيمة مطلقـة، وبالتالى لكل نتيجة طبيعية لها، وفـرض لحياة الغابة، كما أنه أدى إلى ظهور المتوحشين (مصطلح يعبر عن الجـرأة والتحرر من القيود التقليـدية أطلق فى فرنسا حوالى عام ١٩٥٥م).

إن لفظ «حقيـقة» المتفق عليه فـى عصر النهضة مـا هو فى الواقع إلا كذب وافتراء، وقد نستخدم بدلاً منه «خضوع الإنسان».

فقد كان سرڤنتاس وشكسبيـر من أوائل من قالوا: «إنى أرى الملك عاريًا»! فحقيقتك أيها الإنسان حقيقة زائفة: ليس لها معنى لأنك تفتقر إلى الهدف.

فالمادة تحول كل القيم إلى قيم تجارية «فقيـمتك فيما تملك، فتملك على قدر ما تساوى» (II, 20, p. 669 et, 43, p. 831) «فالثروات قادرة عـلى سد فجوات كثيرة (دون كيشوت) (II, 19, p. 655) ».

ولقد استنكر سرڤنتاس كذلك الفساد الأخلاقى الناجم عن ازدهار الرأسمالية فى عصر النهضة بنفس الوضوح والحدة التى أظهر بها شكسبير «الأحمق الذى عرف كيف يخر أمام الأبله المكسو بالذهب».

«ماذا أرى هنا؟ ذهب! هذا المعدن الأصفر البراق والثمين! إن القليل منه يكفى لتحويل الأسود إلى أبيض والقبيح إلى جميل والظالم إلى عادل والدنىء إلى نبيل والعجوز إلى شاب والجبان إلى جسور. وهذا سوف يؤدى إلى إبعاد القساوسة وخدام الكنائس من كنائسكم وسوف يقلق سكينة المرضى. إن هذا المال الأصفر سوف يحطم ويلغى التطلعات ويبارك الملعون ويؤدى إلى تقديس داء البرص الأدكن ويضع اللصوص فى مناصب الشيوخ مع منحهم الألقاب والثناء عليهم واحترامهم. هذا هو ما دفع الأرملة الحزين للزواج مرة أخرى.

إن مستشفى المصابين بالقرح الشنيعة يؤدى إلى الغثيان مع الشعور بالنفور، لكن هذا الذهب يعطر جو هذه المستشفى ويطيبه ويصنع منه كذبة جديدة.. هيا أيها الغبار الملعون الذى يحط من شأن كل الجنس البشرى ويزرع الشقاق، بين جموع الأمم، سوف أعيدك من جديد إلى موطنك الأصلى، فى الطبيعة»[1].

ولقد كان سرڤنتاس كذلك واضحًا، فما كان يعتقد أنه ملحمة صوفية رآه على أنه واقع منفر للاستعمار. ففى مسرحية «غيور استرمادور» وصف الهند الشرقية بأنها «مأوى وملجأ البائسين الإسپان، ومحراب الساقطين، وجواز مرور المجرمين.. ومخيبة آمال الكثيرين، والمداوية للقليلين» (Pléiade.p.1301).

عبر سرڤنتاس عن خيبة أمله المأساوية فى «تحول الأحلام» على لسان دون كيشوت فى سياق حديثه عن الأعمال العسكرية والآداب، معلنًا أسفه «لممارسة مهنة الفارس الذى يجول ويصول فى عصر بغيض مثل العصر الذى نحيا فيه» (I,37-38).

واستخلص دون كيشوت مصدر إلهامه من آلية هذا العالم ومن الإنسان

---

(1) Shakespeare: "Timon d'arhènes" (Acte Scène 3) Pléiade,p.989.

المجرد من البعد الروحانى قائلاً: لقــد حلت السلطة المطلقة للمال محل السلطة الإلهية، وأصــبحت هى سيدة الإنســان والمجتمعات. «فــالمال هو أفضل أساس لهــذا العــالم» (II ,No,p66)، «والكسب المادى يســتــطيع تحــقــيق كل شىء» (II,20,p.667).

لقــد تدفق المال من الأمريــكيتين وأغــرق إسپــانيــا. وأصبح المال هو القــوة المحركة لكل الأفعال.

هذا هو العالم الذى تحول مرة أخرى إلى عالم متوحش يحيا فى أدغال رأس المال بفــضل هذا النــظام المنبــثق عن النهــضــة والقــائم عــلى المادة والمصلحــة الشخصية.

«. . أيها الإنــسان إنك تأخذ عــن الحيوان أكــثر مما تأخــذ عن بنى جنسك» (II,28,P.732).

ذلك هو المقصود بنشأة عالمنا.

لقد عاصر كلٌ من شكسپير وسرڤنتاس بداية الحقبة التى تم فيها إرساء قواعد هذه اللعبة.

واليوم مع «بيكيت - Beckett» وحتى ظهــور «جودو - Godot» نصل إلى نهاية هذه الحقبة.

***

ومع الحقــبة التاريخيــة التى بدأت عام ١٤٩٢م بغزو أمــريكا، أدرك البعض معنى البربرية الجديدة لهــذا الغرب، الذى اعتبر نفسه المصدر الوحــيد للحضارة ورسول الحــداثة. ولقد أثبت أولئك أن الغــرب قد انحــرف عن الطريق السليم خلال هذه الحقبة.

ولقد تجاوز أحدهم هذا الإدراك الناقد وأثبت- فى بداية عــهد الرأسمالية فى انجلترا- أن حياتنا كانت يمكن أن تختــلف عما كانت عليه. ولقد نجح فى ذلك

بتجاوزه حدود وتعصب أوروبا، مذكرًا بالإمكانات المفتوحة أمامنا بعد التعرف على «العالم الجديد».

ولقد كتب هذا الشخص أول مؤلف عن «المدينة الفاضلة» - «يوطوبيا» ولم يكن بالشخص الذى يمكن أن نطلق عليه «الرجل الخيالى»، ولكنه كان على العكس من ذلك «رجلاً عمليّا» شغل على التوالى منصب مفاوض تجارى مع كبار تجار الصوف الهولنديين، ثم رئيس وزراء انجلترا فى الوقت الذى نشأت فيها أول رأسمالية فى العالم.

هذا الشاهد البارز هو «توماس مور- Thomas More » (1478-1535) ولم تكن رؤيته المستقبلية ترتكز على الأحلام الشخصية ولا على النزوات التخيلية. ولكن على العكس من ذلك كان كتابه الأول عن المدينة الفاضلة عبارة عن تحليل عميق للصورة التى رآها عن المجتمع الإقطاعى والزراعى، وعن الرأسمالية التجارية التى بدأت مع صناعة الصوف.

ونظرًا لشغله منصب محامى اتحاد التجار، استطاع التعرف على كل آليات تجارة الصوف مع الفنلنديين بعد أن تم إيفاده سفيرًا فى Anvers لفض المنازعات مع النساجين وحل خلافات التجار الإنجليز والفرنسيين. ولقد خولت له بعد ذلك عضويته فى البرلمان حق الإشراف على مصروفات الدولة.

ومع بداية عهد هنرى الثامن، كتب توماس مور أنه تجرأ وتصور أن «يصبح الملك أبا للشعب وليس سيدًا للعبيد»، وفى عام ١٥٢٩م تقلد أعلى مناصب القضاء فى انجلترا، إذ أصبح مستشار المملكة، ولكنه رفض بصلابة طلاق هنرى الثامن من كاثرين الإسبانية بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما رفض مرسوم الهيمنة الذى صدر عام ١٥٣٣م، وجعل من الملك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجيلية، ولذلك تم إعدامه يوم ٦ يونيو عام ١٥٣٤م.

وهكذا يعتبر أول مؤلف عن المدينة الفاضلة - الذى يتضمن بوادر الفكر الاشتراكى الأوروبى- هو عمل من أعمال رجل لا يمكن تسميته «الرجل

الخيالى»، ولكنه كان رجلاً واقعيّا استطاع - على كل مستويات المسئولية التى تحملها (حتى وصل إلى أعلى المناصب) - أن يعيش بدايات الرأسمالية التجارية ويتعرف عليها ويقوم بتحليل آلياتها وآثارها السلبية.

ولقد كان الجزء الأول من مدينته الفاضلة مخصصًا لدراسة التغيرات الإنجليزية.

فمن أجل تحقيق ازدهار تجارة الصوف، قام الإقطاعيون القدامى والتجار الأغنياء باحتكار الأراضى التى كان يزرعها صغار الفلاحين بالمحاصيل الزراعية. وقاموا بطردهم من مزارعهم وتسوير (صدر مرسوم التسوير) المساحات الشاسعة لتربية الخراف من أجل سوق الصوف. وقام توماس مور بوصف دقيق ومأساوى لهذه العملية للنهضة الوليدة قائلاً: **«وهكذا قام أحد البخلاء الجائعين بإحاطة المساحات الشاسعة بسور، وتم طرد المزارعين الشرفاء من منازلهم، بعضهم عن طريق الغش والبعض الآخر عن طريق العنف. أما سعداء الحظ منهم فقد تم طردهم بسلسلة من الإجراءات الكيدية والمقلقة لإجبارهم على بيع ممتلكاتهم. وقامت هذه العائلات التى تتميز بكثرة عدد أفرادها أكثر من ثرائها (لأن الزراعة تحتاج للأيدى العاملة الوفيرة) بالهجرة عبر الريف. فالأزواج والزوجات، الأرامل والأيتام، الآباء والأمهات، والأحفاد، قاموا جميعهم بالهرب وهم يبكون منازلهم التى شهدت مولدهم والأرض التى قامت بتغذيتهم، وهم لا يستطيعون إيجاد المأوى الذى يجمع شملهم. وهكذا قاموا ببيع كل ما استطاعوا حمله من متاع بأسعار بخسة. وبعد نفاد هذا المورد ما الذى كان ينتظرهم؟ السرقة؟ الشنق فى مزارعهم؟».**

«ضعوا حدًا للبخل الأنانى للأغنياء، اسلبوهم حق الاحتكار، اعملوا على تنمية الزراعة بصورة كبيرة، أنشأوا مصانع الصوف واخترعوا صناعات أخرى. أين يذهب هذا الحشد من البشر الذى حولهم الفقر- حتى الآن- إلى لصوص أو مشردين؟»، هكذا تساءل توماس مور.

وفى رده على أولئك الذين يرون «الشنق الوسيلة الوحيدة للقضاء على

اللصوصيـة» قال توماس مور: «إن اقـتناعى الوثيق هو أنه من الظلم قتل رجل لسرقته المال طـالما أن المجتمع الإنسانى لا يمكن تنظيمه بحـيث يضمن لكل فرد نصيبًا عادلاً من الثروات».

تلك هى الفكرة الأساسيـة التى نستخلصها من نقـد النظام القائم فى انجلترا بعد انتصار الرأسمالية.

«حيثـما تصبح الملكية حقّـا شخصيّا، وحيـث يتم حساب كل شىء بالمال، فإننا لا نستطيع فى مثل هذا المكان إقامة العدالة وتنظيم الملكية الاجتماعية، إلا إذا كنتم تطلقون لفظ عادل على مجتمع أفضل ما فيه هو مشاركة الفئات الأكثر شرًا، وكنتم تعتقدون أن الدولة المحظوظة تمامًـا هى تلك التى تقع فيها الثروات العامة فريسة فى قبضة حفنة من البشر لا تشبع من الملذات فى حين أن الأغلبية يلتهمها الفقر».

«إن تحقيـق العدالة- على ما أعتـقد- يستحـيل فى دولة تصبح فيهـا الملكية خاصة ومطلقة؛ لأن كل فرد فيها يستبيح تحت بعض المسميات والحقوق التملك على قدر ما يستطيع. وهكذا فإن الثروة القوميـة مهما كان مقدارها يئول أمرها فى النهاية إلى حفنة من الأفراد لا تترك لغيرها سوى الفقر والبؤس».

«هذا هو ما يقنعنا بطريقة دامغة أن الوسيلة الوحيدة لتوزيع الثروات بالمساواة والعدل وتحقيق السعادة للجـنس البشرى تكمن فى إلغاء الملكية. طالما ظل حق الملكية هو أساس البناء الاجـتماعى، فإن الفئة العظمى سـيقتصر نصيـبها على البؤس والعذاب واليأس».

«ولهذا فإننى عندما أنظر وألاحظ الجمهوريات المزدهرة حاليًا، فإننى لا أرى سوى تآمر الأغنياء الذين يحـققون أهدافهم تحت شعار أو مسـمى «الجمهورية» المطاط. فالمتـآمرون يسعـون بكل الخدع وبكل الوسـائل الممكنة- إلى بلوغ هذا الهدف المزدوج: أولاً: التحـقق من امتلاك ثروة شاسـعة ومكتسبـة بطرق غير شريفة. ثانيًا: استغلال بؤس الفقراء وخداعهم وشراء صناعتهم وجهدهم بأقل

الأسعار. وتحولت المكائد التى حاكها الأغنياء باسم الدولة وبالتالى باسم الفقراء إلى قوانين».•

وفى مواجهة هذا المجتمع القـائم على السلطة المطلقة لسوق المال، لم يعمد توماس مـور إلى ذكر الهـواجس الرومانسـية، فقـد أراد أن يصبح عـمليّا فى مقترحاته كما فى نقده.

وقد أثبت أن فرصـة إنشاء المجتمع الذى يختلف جـذريًا فى تكوينه قائمة؛ لأنه قائم بالفعل فى العالم الجديد (أمريكا الهنود الحمر) حتى مع أوجه القصور فيه.

وهنا يكمن نوع آخر من التنميـة التى لا تهدف إلى تكديس الذهب، ولكن إلى تحقيق رفاهية الإنسان «والسعادة الحـقيقية ترتكز على هذه التنمية الكاملة»، وقد اشتق توماس مور مصادره من:

- تقارير «أمريجو ڤيسبوسى - Amerigo Vespucci» (الذى أطلق اسمه على أمريكا) عن رحلاته الأربع للعالم (الجديد التى نشرها عام ١٥٠٧م).

- شهود العيان مثل محدثه «رفائيل - Raphaël» الذى يحدثنا عنه قائلاً: «هو من بلاد البرتغال، ولقـد ترك ميراثه لإخوته، إذ كان لا يزال شابًا يلتـهمه شغف الطواف بالعالم، فـتعلق بشخص ومـغامرة أمـريجو ڤيسبوسى، فلم يترك هذا الملاح العظيم لحظـة واحدة خـلال الثـلاث رحـلات الأخيـرة من بين رحـلاته الأربع».

ويحدثه رفـائيل قائلاً: «لم يخـطر على مخيـلتكم أى فكرة عن جمـهورية شبـيهة وحتى لو خطرت فـستكون فكرة خاطئـة. لو أنك تواجدت فى المدينة الفاضلة وعاصرت وشاهدت مثلى هذه المؤسـسات وهذه العادات حيث قضيت هناك خمس سنوات من عمرى، ولم أقرر الخروج منها إلا لكى أكشف للعالم القديم هذا العـالم الجديد، لو أنك تواجـدت هناك لاعترفت أن هذا المجـتمع المنظم تنظيمًا مثاليّا، لا نظير له فى أى مكان آخر».

ويقول توماس مور «إنه لاحظ هناك عدداً كبيراً من القوانين القادرة على تنوير وإحياء الأمم الضعيفة وممالك أوروپا الهرمة.. كم من القرون تلزمنا كى ننقل عنهم أفضل وأكمل ما فى حضارتهم؟»٠

وعلى عكس الاقتصاديين فى الرأسمالية الوليدة- التى تعتبر قوانين السوق قوانين طبيعية- اكتشف رفائيل «شعوبًا ومدنًا وضواحى لا تتلاءم البتة مع مؤسسات قارتنا التى يعبد فيها الذهب كالإله، ويسعى الجميع وراءه لأنه سيد الثروات.. ويتسابق الجميع لامتلاك الذهب والفضة بطريقة مشينة. ولايتعاملون معهما كبقية العملات».. «على الرغم من أنهما لا يتمتعان بأية ميزة ولا أى استخدام ولا أية خاصية إضافية سوى تلك التى منحتهم إياها الطبيعة.. إن ندرتهما هى التى دفعت الجنون البشرى ليضفى عليهما هذه القيمة الغالية».

«فى المدينة الفاضلة لا مكان للبخل حيث ينعدم التعامل بالمال، وبناءً عليه يمكننا التساؤل عما إذا كان هناك مصدر من مصادر التعاسة لم تتمكن هذه المدينة من القضاء عليه؟ من يعرف ما إذا كانت جرائم الغش والسرقة والنهب والمضاربة والتمرد والنزاع والعصيان والقتل والخيانة والفساد - التى يقتص منها المجتمع بفرض العقوبات المستمرة دون الحول من ارتكابها - سيأتى اليوم الذى تختفى فيه؟ ويتلاشى بالتالى الخوف والقلق والإرهاق والأرق. والفقر نفسه- وهو الآفة الوحيدة التى قد تحتاج إلى المال- قد ينحصر إذا ما تم إلغاء التعامل بالعملة تمامًا».

«وعلى العكس من مجتمعاتنا- التى يتم فيها تقييم كل شىء بالمال- فإن الأساس الذى كانت ستقوم عليه هذه الجمهورية الغريبة كان بمقدوره القضاء على كل هذه الأفكار، أقصد بذلك قيام مجتمع معيشى وحياتى لا يتعامل بالمال».

أما المجتمع الذى يتحكم فيه السوق فى كل العلاقات الاجتماعية، يتحول

كل فرد فيـه إلى منافس ومتسابق بـحيث يصعب إنجاز أى عمـل جماعى، بل تنتصر المصلحة الشـخصية. . «فالمنفعة المادية التى تتحـقق فى هذا المجتمع لفرد ما، تُسلب بطريقة أخرى من فرد آخر» وفقًا لتوماس مور.

وفى مقـابل هذه الفردية (مذهب ينظـر إلى الكائن كفرد منفـصل عن سواه ويدعو إلى التـفكير بالذات وحدها) هناك الحيـاة الجماعية، أى المجـتمع الذى يشعر فيه كل فرد بأنه مسئول عن الآخرين.

ويقول تومـاس مور «هناك فى أى مكان آخر غـير المدينة الفـاضلة يتم إقرار مبـدأ ملكيتك وملكيـتى وفق نظام معيب ومـعقد الآليـات، وآلاف القوانين لا تكفى كى يستطيع كل فرد الحصول على ملكيـة يدافع عنها ويفصلها عن ملكية الآخرين».

ويستـمر رفـائيل فى حديثـه قائلاً: «لقد حـاولت أن أصف لك شكل هذه الجمـهورية التى أعتقـد أنها ليست فـقط الأفضل، ولكن الوحيـدة الجديرة بأن يطلق عليهـا لفظ جمهورية، فـفى أى مكان آخر لا يهتم كل من يتـحدث عن المصلحة العـامة إلا بمصلحته الشـخصية. أمـا فى هذه الجمهورية حـيث تنعدم الملكية، يهتم كل فـرد وبصورة جدية بالمصلحة العـامة؛ لأن المنفعة الشخـصية تختلط فى الحقيقة مع المنفعة العامة».

وفى المدينة الفاضلة حيث تصبح الملكية مشاعًا للجميع، لا يمكن للإنسان أن يشـعر بالحـاجة، إذ تمتلئ الخـزائن العـامة ويتم توزيع الثـروات بصورة عـادلة وبالتالى لن تجد هناك أى فقير أو شحاذ.

إن رفض الرفاهية والمتطلبات الفائضة عن الحاجة «يحصر عمل السكان هناك فى الوظائف الضـرورية»، مما يـجعـل هذا المجتـمع عـلى طرفى النقـيض مع المجتمعات التى تؤدى فيها شهية الاستهلاك إلى نشأة التطفل.

«ألا يتـصف بالأنانية والجـحود ذلك المجـتمع الذى يجـزل العطاء لأولئك

الذين نطلق عليهم النبلاء والأثرياء والعاطلين وصناع الرفاهية الذين لا يعرفون إلا التملق وإرضاء الشهوات التافهة؟ ذلك المجتمع الذى لا يرحم ولا يكترث بالفلاح وجامع الفحم والعامل والسائق والصانع، أى الفئات التى لا يمكن للمجتمع أن تقوم له قائمة بدونها، ذلك المجتمع الذى يستنزف عنفوان شبابهم كى يحقق من جراء عملهم وكدهم كل منفعة ممكنة».

«ونظرًا لأن الأعمال فى هذه المدينة تقتصر على الوظائف الضرورية، فالعمل المادى يتم انجازه فى فترة وجيزة، وعلى الرغم من هذا فالإنتاج وفير وفائض عن الحاجة. وعندما تتكدس المنتجات يتم إصدار تشريع يسمح بتقليص ساعات العمل؛ لأن الحكومة لا تسعى إلى إنهاك المواطنين بالأعمال غير المجدية».

«والمؤسسات الاجتماعية فى المدينة الفاضلة تهدف فى المقام الأولى إلى إشباع حاجات الاستهلاك الجماعى والفردى، ثم تترك بعد ذلك لكل فرد الوقت الكافى كى يتحرر من عبودية جسده ويثقف فكره بحرية تامة وينمى ملكاته الفكرية من خلال دراسة العلوم والآداب. إن هذه التنمية الشاملة هى التى تحقق السعادة الحقيقية».

ولقد أشاد توماس مور بالمستوى المتقدم للمعرفة العلمية التى بلغها الهنود خاصة فى علم الفلك.

وعندما أشار إلى حكمتهم وديانتهم أكد على مخبرهم الإنسانى قائلاً: «إنهم يعرفون الفضيلة ويعيشون على سجيتهم. فالله عندما خلق الإنسان لم يحدد له إلا هذا المعيار».

إن سكان تلك الجزيرة التى لا تعتنق المسيحية لا يعترضون على انتشارها؛ لأنهم يزدرون بشدة وباسم الأخلاق الإنسان الذى يهين عزة نفسه لدرجة أن يعتقد أن العالم يسير وفق نظام عشوائى، وذلك لأنهم مسيرون بالدين الفطرى الموجود داخل كل إنسان: فعندما نقول الله- مهما تكن تسميتنا له- فهذا يعنى أن للحياة معنى.

«وهكذا عندما أقارن بين المؤسسات الأوروبية ومؤسسات الدول الأخرى، أستطيع أن أعجب بالحكمة والإنسانية من جانب، وأرثى للجهل والبربرية من جانب آخر».

والكاتب الفرنسى «مونتانى- Montaigne» (١٥٣٣-١٥٩٢م) فى الفصل الثانى من الكتاب الأول لمجلده «Essais» أصدر حكمًا قاسيًا- فى هذا الفصل الذى يحمل عنوان: «آكلو لحوم البشر»- على التوجهات الجديدة للتاريخ، وأشار إلى الحال الذى يمكن أن يصبح عليه التقاء العالمين إذا ما التقيا على الحوار والتفاعل المتبادل وليس على إلغاء «الآخر» أو على السلب بالقوة وإبادة الهنود الأمريكيين.

بدأ مونتانى بقراءة كتاب «لوبيز- Lopez» «التاريخ العام للهند» قراءة نقدية واستمع إلى أقوال ملاح أبحر للأمريكيتين «وجعله يلتقى عدة مرات بالعديد من الملاحين والتجار الذين تعرف عليهم فى هذه الرحلة».

(Essais,liver I,chap.31)

ولم يكتف مونتانى بلعن مذابح الغازين متسائلاً: «من الذى حدد بصورة دائمة السعر السائد فى السوق والتجارة؟ كم من المدن تم سحقها وكم من الأمم ثم إبادتها وكم من ملايين البشر تم قتلهم بحد السيف؟. لقد تم اجتياح أغنى وأجمل بقعة فى العالم من أجل تجارة اللآلئ والتوابل: يالها من انتصارات تحققت بفضل التفوق الآلى، فالطموحات والأحقاد العامة لم تدفع قط البشر فى مواجهة بعضهم البعض لمثل هذه العداءات الفظيعة والمصائب البائسة».

(Essais, liver III, Chep.VI)

على العكس من ذلك- يضيف مونتانى قائلاً (١ , ٢١) : «إن هذه الأمة لا تعرف البربرية والوحشية.. إلا إذا كنا نطلق كلمة «بربرى» على كل ما هو مخالف للعرف.. إنهم «همج» بالمعنى الذى نطلقه على النباتات «البرية» التى

تنبتها الطبيعة وحدها.. إن الذين أفسدوهم بزيفهم وأبعدوهم عن العرف السائد هم الذين يستحقون أن نطلق عليهم لفظ «همج».

ويؤكد السيد «Bartolomé de las Casas» همجية الغازين قائلاً: «كى يطعموا كلابهم، كانوا يكبلون الهنود ويقتادونهم ويقتلونهم ويجعلون من لحمهم البشرى جزارة متنقلة».

ولقد كتب مونتانى الحكيم عن آكلى لحوم البشر بعد أن استمع إلى أخبارهم من روايات شهود عيان - قساوسة وقضاة - قائلاً: «لست آسفًا لإدراكنا لهذه البربرية المرعبة لتلك الممارسات.. إننا نحكم على أخطائهم بينما نغض البصر عن أخطائنا.. أعتقد أن الوحشية تكمن فى أكل رجل حى أكثر من أكله ميتًا وتمزيقه بالتعذيب والتنكيل.. ودفعه إلى الكلاب لتنهشه.. ثم شيه وأكله بعد موته.. نعم نستطيع تسميتهم بالهمج، ولكنهم ليسوا همجًا مقارنة بنا؛ لأننا تفوقنا عليهم فى كل أنواع البربرية (١, ٣١)».

ولقد قارن مونتانى بين «شجاعة الهنود الذين يفضلون طواعية المعاناة والموت على الخضوع لسيطرة أولئك الذين استغلوهم بصورة مشينة، وبين النصر الآلى للغازين الذى تحقق بسبب اختلاف الأسلحة المستخدمة» (Essais, III.6).

وفى مقابل شراهة الغربيين- المهتمين فقط بالسعى وراء مناجم الذهب - ذكر مونتانى روعة عمارة الهنود «وعظمة مدن كوزكو Cuzco ومكسيكو Mexico» (III 6).

ولقد أكد العديد من الشهود رأيه عن هذا العمران: فالمؤرخ «برنال ديزكاستيلو- Bernal Diez de Castillo» الذى دخل مدينة «تينوشتيلان- Tenochtitlan» (المكسيك حاليًا) مع قوات القائد «كورت- Cortes» كتب قائلاً: «كان بيننا جنود من القسطنطينية وإيطاليا وروما، وكانوا يقولون إنهم لم يروا فى أى بقعة أخرى مثل هذا المكان الذى يتمتع بالانسجام الشديد والنظام على الرغم من الأعداد الغفيرة التى يضمها».

وفى بيرو صـاح «بيزار- Pizarre» نفسـه قائلاً: «إن روعـة هذه الطرق لا يضـاهيهـا شىء فى المدن المسيـحيـة»، وأكد العـالم الألمانى Guillaume de » «Humboldt ذلك بعـد عدة أعـوام قـائلاً: «إن قـارعة الطريق هـذه المهـدة بالأحجـار الكبيرة، يمكن مـضاهاتها بأجـمل شوارع الرومان، وهى من أكـبر الأعمال التى نفذها الإنسان من حيث الأهمية والعظمة».

إن هذه الشبكة البرية كانت مثالاً لطرق السيـر الممهدة بالأحجار الحمراء فى مجـتمع ضرب المثل الأول فى عـدم اتباع نظام الملكيـة الخاصة فى ظل عـصر الحضـارة المتطورة للغاية التى تمجد العـقول الفيـاضة لأوروبا. ومن المعتـقد أن «كامپانيللا – Campanella» قام بتشييد مدينة الشمس الفاضلة فى پيرو، وكتب القس «موريللى- Morelly» قائلاً: «إن إمكانيـة إنشاء نظام لا يعتـرف بالملكية الخاصـة ليس أمرًا خـياليّـا، بما أن عادات الشعـوب (التى يصفـها فى مـؤلفه Basiliade) تشبه تقريبًـا عادات شعوب الإمبراطوريات الأكـثر ازدهارًا والأكثر انضباطًا على وجه الأرض، وأقصد بها بلاد پيرو».

وفيما يتعلق بالنوعية الجمـالية لأعمال الهنود الأمريكيين، لدينا هذه الشهادة التى أدلى بها «ألبـير بورير- Albert Bürer» فى رسائله: «لقـد رأيت الأشياء المجلوبة إلى ملك المدينة الذهبـية الجـديدة: شمس ذهبـية، وهى كـتلة كبـيرة الحجم وقـمر ضخم من الفضــة.. إن رؤية هذه الأشياء تسر الأعين أكـثر من رؤية المعـجزات نفسـها.. لم أر شـيـئًا أدخل السـرور على قلبى مـثل تلك الأشياء».

ولم يتـبق سوى القليل مـن هذه الأعمـال؛ لأن المغامـرين الإسپـان قامـوا بصهرها فى شكل سبائك.

لقـد تفوق عـلم شعب مـايا (شـعب يقطن هندوراس البـريطانيـة وشمـال جواتيمالا) فى العديد من المجالات على مثيله الأوروپى فى نفس ذلك العصر.

ففى علم الفلك، قـام كهنتهم بحساب السنة الفـلكية ٣٦٥,٢٢٢ يومًا وهو

الرقم الأكثر دقة من تقويم جريجوار Crégoire XIII (١٥٠٢- ١٥٨٥م) الذى أجراه بعد ذلك بخمسة قرون، إذ إنه لا يختلف إلا فى حساب يوم واحد على مدار ٦٠٠٠ عام.

كما قاموا بإعداد جدول يتنبأ بالخسوف الشمسى، وهو الأمر الذى كان يتطلب تقدمًا كبيرًا فى علم الرياضيات، فنظام الرصد الرقمى لديهم تفوق بكثير على النظم التى عرفها اليونانيون والرومان.

ولم يكن هناك من شعب فى العالم يضاهى هنود أمريكا (خاصة المايا) فى زراعة النباتات الداجنة المتنوعة مثل الذرة والبطاطس والمينهوت (جنس نبات يستخرج من جذورها دقيق نشوى) والمطاط.

وتساءل مونتانى عن الحال الذى كان سيصبح عليه العالم لو التقت أوروبا وأمريكا الهندية فى أمور تختلف عن طموحات المرتزقة والتجار المتعطشين للذهب.

«إن عالمنا لا يلبث يلتقى بآخر.. وهذا العالم الآخر سيدخل عصر الأنوار بعد أن نخرج نحن منه.. على الرغم من أننى أخشى نقل العدوى إليه فنعجل بذلك اضمحلاله وفناءه... إن معظم الأحاديث والمفاوضات التى أجريناها معهم تدل على أنهم ليسوا فى مرتبة أدنى منا من حيث وضوح الفكر التلقائى والفطنة.. كم كان الأمر سهلاً لتحقيق المنفعة المادية فى تعاملنا مع هذه النفوس البريئة..»

«على العكس من ذلك لقد استغللنا جهلهم وعدم خبرتهم فى إخضاعهم لعادتنا كى يحذو حذونا، سواء بالخيانة أو بالإغراء، وبالترف أو بالبخل، وبكل أنواع الممارسات اللاإنسانية والقسوة» (Essais III,6) .

إن هذه الملاحظات التى أوردناها لا تعتبر خروجًا عن الموضوع ولكنها رد على الادعاء الغربى بأنه يمثل النموذج الوحيد للحداثة والتقدم. إنه إشارة للالتقاء الحقيقى والمحتمل فى المستقبل للحضارات من أجل إقامة وحدة غير متسلطة وفى تلائم وانسجام تام مع العالم.

***

وبسبب هيمنة الغرب وازدراء الثقافات الأخرى وتدميرها، يمكننا القول بأن العصور الحديثة - كما نطلق عليها فى كتب التاريخ - ما هى إلا رفض للوحدة الإنسانية.

إن الثقافة الغربية المسيطرة منذ خمسة قرون، والتى تعتبر نفسها المصدر الوحيد الخلاق للقيم والمحور الفريد للمبادرة التاريخية، تقوم أساسًا على ثلاث مسلمات للحداثة:

- مسلمة آدم سميث فى العلاقات الإنسانية والقائلة «عندما يعمل كل منا فى سبيل منفعته الخاصة، فهو بهذا يساهم فى تحقيق المنفعة العامة».

- مسلمة ديكارت فى علاقتنا مع الوجود التى تجعلنا أسياد وملاك الوجود.

- مسلمة فاوست فى علاقاتنا المستقبلية، حيث كتب الأديب المسرحى «مارلو- Mar Lowe» (١٥٩٣م-١٥٦٣م) فى مسلمة فاوست الأولى: «أيها الإنسان، تحول بفضل عقلك القوى إلى إله وإلى سيد ومولى كل عناصر الكون».

إن مسار تاريخ الحضارة الغربية- القائم على هذه المسلمات الثلاث من حيث التفوق والتى شهد بعضنا بفضل انتشارها نهاية هذا التاريخ- أبرزه الفلاسفة الإنجليز والفرنسيون والألمان.

- أبرزته الفلسفة الإنجليزية بدءًا من مسلمة آدم سميث وحتى توحيد السوق.

- بدأته الفلسفة الفرنسية من مسلمة ديكارت وحتى عصر الحاسب الآلى.

- تناولته الفلسفة الألمانية بدءًا من مسلمة فاوست وحتى عالم اللامعنى.

أ- من مسلمة آدم سميث وحتى توحيد السوق (الفلسفة الإنجليزية)

ظهر النمط الأول للرأسمالية والوعى بأسسها فى انجلترا. ويشير التقرير الرسمى لشركة الهند عام ١٧٧٠م إلى أن **«أكثر من ثلثى السكان هلك فى المنطقة التى كانت تتمتع بازدهار زراعى، وانتشر البؤس بشدة فى مناطق أخرى»**.

وعندما تولت الدولة الإنجليزية شئون الشركة، قام اللورد كورنواليس - الحاكم العام للهند- بعمل إحصائية ذكر فيها «أنه يستطيع التصريح - بكل تأكيد - أن ثلث أراضى هندوستان تحولت الآن إلى غابة تقطنها الحيوانات المفترسة». أما القانون العقارى الدائم الذى أصدره عام ١٧٩٣م فى البنجال وبيهار، والذى يقسم الهند إلى أربع مناطق كملكيات خاصة، فقد أتاح الفرصة لسلب الأراضى التقليدية الريفية من الفلاحين الفقراء، تلك الأراضى التى كانت تسد رمقهم، وكان هذا القانون وهذه السياسة هما السبب الرئيسى فى مجاعة الهند الأولى: فقد وقع مليون قتيل بين عامى ١٨٠٠م - ١٨٢٥م، وأكثر من ٥ ملايين من عام ١٨٥٠م وحتى عام ١٨٧٥م، و١٥ مليونًا فى الفترة من ١٨٧٥م وحتى ١٩٥٥م. وهكذا تم القضاء على الاقتصاد الزراعى المعيشى فى الهند، وتلاه انهيار صناعة النسيج، فقد عمدت لعبة التحررية إلى تحويل هذا البلد لمستورد أقمشة من مانشستر فى الفترة من عام ١٨١٤م وحتى عام ١٨٣٤م وارتفع رقم الاستيراد من مليون دولار إلى ٥١ مليونًا.

أما أولئك الذين نطلق عليهم «الفلاسفة الإنجليز» فى كتب التاريخ الرسمية، فقد كانوا فى بادئ الأمر رجال سياسة يرتبطون ارتباطًا وثيقًا بالاقتصاد الإمبريالى لعصرهم ويرتزقون من خدمتهم بالتنظير المناسب.

وفى مؤلفه بعنوان عناصر القانون السياسى والطبيعى
Eléments de la loi politique et naturelle (1640)

استخلص «هوبس- Hobbes» (١٥٨٨م- ١٦٧٩م) الذى يرى أن القوانين الرأسمالية هى قوانين طبيعية، مبدأ الاقتصاد التجارى المقر بالملكية الفردية الوحشية والتنافس دون هواده. وانتهى إلى أن الوضع الطبيعى للمجتمع هو «الإنسان ذئب لأخيه الإنسان»، و«الإنسان عدو الإنسان، فى كل شىء».

ويعتقد هوبس- الذى يرى أن فشل الديموقراطية اليونانية هو بمثابة تحذير لنا- أن الحل الوحيد لفرض نظام على هذه الشهيات المتوحشة التى تتواجه مع

بعضها البـعض هو فرض الاستبدادية المطلقة. تلك هى النظرية الرئيـسية لمؤلفه Leviathan (١٦٥٤م).

وهكذا فقـد اكتشف هوبس منطق الليـبرالية الذى ترسخ فى القـرون الثلاثة التالية: فهو نظام بدأ بالتنافس الأنانى بين الأفراد والأمم على حد سواء، ومكن القوى من أن يلـتهم الضعـيف، حتى يتـمكن فرد واحد فى نهـاية المطاف من فرض ديكتاتوريته المستبدة.

وفى هذا الصدد يرسم هوبس مسار منهج الفردانيـة التنافسية و نهايته. ذلك المذهب الذى يخـتلف ظاهره عن باطنه، ذلـك الباطن الذى يعـبـر عن المنطق الخفى لهذا المذهب ألا وهو الديكتـاتورية الشمولية، التى تأخذ شكلاً سـياسيّاً مقنعًا ولكن مغالياً ومستبدًا من الناحية الاقتصادية؛ لأنها محاولة لفرض الهيمنة الدولية عن طريق توحيد السوق.

أمـا «چون لوك- John Lock » (١٦٣٢م- ١٧٠٤م) - الذى يعـتـقـد أن العدالة تكمن أساسًا فى حماية الملكيـة - فقد استكمل إعداد منهجه فى المؤلف الذى شـرع فى كتـابته عـام ١٦٧١م ونشره عـام ١٦٨٣م بعنوان «دراسة عن التفاهم الإنسانى- Essai sur l´entend ement humain».

وهكذا أصبح لوك هو المروج لفكرة إنشاء البنوك، عندمـا أشاد بنظام الفائدة الربوية اللازمة للدول التى تأسست على جمع رءوس الأموال.

وأصبحت المضـاربة هى الساحة الحرة للدفاع عن الملكية: فـالفرد أصبح هو الذى يقـدر مقـدار ربحه، مما خـول المالك - فى العـقد الاجـتمـاعى - حق الدخول فى لعبة البنوك التى تحولت إلى ميدان قمار.

وبعد تعيينه مبـعوثًا ملكيّا للتجارة والمستعمرات، ناضل لوك بضـراوة لتقييد قوانين المـستعـمرات الإنجليـزية بأمريكـا (الممنوحة قـبل عهـده بموجب ميـثاق ملكى)، كى يتم إخـضاع اقتصـادياتها بصـورة دقيقة لـلبلد الأم وفرض حظر تصنيع البضائع عليها.

وفى الفترة من عام ١٧٢١م وحتى عام ١٧٤٢م، كان «إدمون والپول - Edmond Walpole» هو المتحكم الصورى فى انجلترا، إذ أصبح مستشار وزارة المالية عام ١٧١٥م، بعد سجنه فى برج لندن عام ١٧١٢م بتهمة الفساد.

ولقد أيده العديد من المنظرين. ففى عام ١٧١٤م أيد «ماندڤيل- Mande-ville» (١٦٧٠م- ١٧٣٣م) فى كتابه «حكايات خيالية عن النحل (١٧١٤م) الرأى القائل بأن الحاجات الشخصية تحقق المنفعة العامة.

وكان Jérémie BenTham (١٧٤٨م - ١٨٣٣م) من أبرز المؤيدين لهذا الرأى وللمفهوم الذى يطابق النظام الرأسمالى بقانون الطبيعة. ولهذا فقد شبه الإنسان - فى سعيه لتحقيق السعادة - بالحيوان الذى يحيا لتحقيق صالحه الخاص فقط. وتخيل Bentham أن هناك نوعًا من علم الرياضيات يحقق السعادة، وهذا لا يتأتى إلا بوجود قاسم مشترك لقياس هذه السعادة يتوفر - وفقًا له - فى أسعار الأشياء التى تجلب علينا السعادة وتجنبنا التعاسة، والتى تحدد وفقًا للسوق.

فالمال إذن هو هذا القاسم المشترك والأداة التى يتم بها قياس هذه السعادة. ومنذ صدور كتابه «مقدمة لمبادئ الأخلاق والتشريع - Intro duction ausc Prin cipes de la morale et de la legislation» (١٧٨٩م) وحتى النتائج القانونية التى توصل إليها فى مؤلفه، (١٨٣٠م) la rationaLité du Chati-ment وجه بنثام مجموعة أعماله الفلسفية نحو المبدأ الأساسى القائل بأن العدالة - فى ظل النظام التنافسى - تلزم المشرع بفرض عقوبات اقتصادية نسبية مقارنة بالجنحة المرتكبة.

وهكذا توصل عصر الكمية (الذى لا يهتم إلا بمقدار المكسب) إلى الأساس الذى يرتكز عليه. وهو العصر الذى أصبح فيه السوق هو المنظم وحده للعلاقات الإنسانية والعصر الذى حول الإنسان إلى منتج ومستهلك يعمل من

أجل مصلحته فقط. هذا الإنسان الذى أطلق عليه Marcuse فيما بعد بثلاثة قرون: «الإنسان ذو الهدف الأوحد».

ولقد لخص فكرته التى لا تفرق بين الإنسان والحيوان فى الصيغة التالية: «دفعت الطبيعة الإنسان لأن يصبح له سيدان فقط هما المتعة والألم».

وكان اللورد «شيلبورن- Shelburne» - أحد خلفاء «وولپول- Walpol»- الذى رأس الحكومة فى انجلترا عام ١٧٦٣م يعتبر بنثام هو «نيوتن العلوم الإنسانية».

وبمساعدة كل من شركة الهند وبنك «بارينج- Baring» رفض شيلبورن منح أى تنازل لإيرلندا وأمريكا المحررة من الاستعمار الإنجليزى. وكان توجهه الرئيسى فى السياسة هو الحرية المطلقة للتجارة. وانتهى فى تعامله مع أمريكا بمبدأ التبادل الحر.

ففى ٢٧ يناير ١٧٨٣م عندما طلبت الحكومة الإنجليزية من مجلس اللوردات التصديق على معاهدة باريس التى تضع نهاية لاستعمار أمريكا، رأى أنه من الممكن تدمير أمريكا الواعدة وإخضاعها مرة أخرى للإنجليز عن طريق اللعبة السهلة للتجارة الحرة. فقد صرح قائلاً: **«إن التنافس هو أساس التبادل الحر... ويجب أن يكون هذا المبدأ هو هدفنا الوحيد على هذه الأرض... إن التوسع فى الصناعة ورأس المال والمشروعات الذى تشهده بلادنا أكثر من أى دولة تجارية فى العالم، يدفعنا لأن تكون كلمتنا الأخيرة هى: «فتح كل الأسواق»**.

تلك بالفعل هى نفس اللغة التى تعامل بها مؤسسو اتفاقية GATT ومنظمة التجارة العالمية، وهى الأهداف التى تسعى إلى تحقيق السيطرة على العالم.

ولقد طلب شيلبورن من آدم سميث (١٧٣٣م - ١٧٩٠م) تأليف كتاب انتهى منه عندما كان يشغل منصب مأمور جمارك فى إيدنبره عام ١٧٧٦م وأسماه: «ثروة الأمم» ولا زال هذا المؤلف يعبر عن واقع الحال حتى الآن.

ذلك الرجل الذى أطلق عليه «رائد الاقتصاد السياسى»، ألف نظرية عن التنمية ظل كل منظرى التبادل الحر - خاصة فى أمريكا فى النصف الثانى من القرن العشرين عندما احتلت مكانة انجلترا فى السيطرة الاقتصادية على العالم - يوصون بتطبيقها.

فالمصلحة الخاصة إذن هى محرك الاقتصاد. وفى الجزء الرابع من مؤلف «ثروة الأمم» عبّر آدم سميث عن الفكرة الرئيسية للنظام الذى يؤمن به قائلاً: «عندما يسعى كل منا لتوجيه صناعته كى تحقق أكبر قدر ممكن من الإنتاج، فهو يسعى بذلك إلى تحقيق مصلحته الخاصة. وهكذا وبطريقة غير مباشرة يسعى إلى تحقيق هدف لم يكن يقصده. فعن طريق تحقيق المنفعة الشخصية يحقق كل منا مصلحة المجتمع أكثر مما كان يستطيع تحقيقها لو كان يعتزم ذلك».

وبالتالى فإن التدخل المتعمد من جانب الدولة قد يضر بالمصلحة العامة، ويجب أن يتقلص إلى أدنى حد ممكن.

إن سياسة السيطرة على المستعمرات القائمة على القوة العسكرية تثقل على مصروفات الدولة، لكن مبدأ التجارة الحرة كفيل بإصلاح الأمور، وأبرز مثال على ذلك هو التفوق الإنجليزى الذى لا يختلف عليه أحد.

ربما كان شيلبورن راضيًا عن نتائج توصياته. غير أن بنثام رأى أن تحررية آدم سميث غير كافية. فعبّر عن رأيه فى عمل بعنوان «الدفاع عن الفائدة الربوية» أخذ فيه على آدم سميث أنه لم يذهب فى نظريته إلى أبعد من ذلك. فقد كان لزامًا عليه أن يقول - وبطريقة أكثر وضوحًا - إن تحديد نسبة الفائدة يقضى على المبادرة والحرية.

ولقد استقبل آدم سميث هذا النقد بصدر رحب، ورد على بنثام قائلاً: «إن مؤلفك هو مؤلف رجل أرفع منزلة».

لقد كانت تحررية بنثام فى الواقع أكثر جذرية وأكثر فاعلية. فآدم سميث لم

يذكر من بين مهام الدولة (بالإضافة إلى الجيش والبحرية والشئون الإدارية والأشغال العامة) المساعدة الواجب تقديمها للعاطلين والمستبعدين. أما بنثام فقد عالج هذه الثغرة فى مؤلفه «Panopticon» (١٨٠٢م) عندما تصور وجود معسكرات حقيقية للأشغال الشاقة تضم المجرمين والمعوزين وأطفالهم، واقترح كتابة الآتى على مداخلها «لو أنكم كنتم تعملون عندما كنتم أحرارًا، لما وجب علينا اقتيادكم هنا كعبيد». مما يذكرنا بما كتبه النازيون على بوابة Auschwitz «العمل هو الحرية». بعد وفاة بنثام عام ١٨٣٢م، تم تحنيط جثته ولا تزال المومياء موجودة بجامعة لندن.

ولقد ألهمت أفكاره كلاً من چيمس ميل James Mill وابنه «چون ستيوارت ميل- John Stuart Mill». فقد لخص ستيوارت ميل فى حياته وفى أعماله كل تطورات أيديولوچية الأوليجارشية (حكم القلة: حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة نافذة) والاستعمار الذى يمثل هو نهاية مرحلته... ففى عام ١٨٢٢م عندما كان يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، عرض منهج بنثام الذى تشبع به، كما قدم فى نهاية حياته عرضًا شاملاً عن أوجست كونت وفلسفته الوضعية.

فى الفترة الواقعة بين مرحلتى فلسفته وبين ظهور أعماله عن «مبادئ الاقتصاد السياسى» (١٨٥٤م) وعن الحرية (١٨٥٤م) وعن النفعية (١٨٦١م) وعن منطقه «الاستقرائى والاستنباطى» - وهو لب أعماله - كرس نشاطه بالكامل للعمل فى «شركة الهند»- إذ التحق بالعمل بها عام ١٨٣٦م فى سن الثلاثين وظل بها حتى تصفيتها عام ١٨٥٨م.

مؤيدًا لأيديولوچية «مالتوس- Malthus» (وهو منظر آخر لشركة الهند) ظل ستيوارت ميل هو المرجع الأساسى لكل مروج وداعية للاستعمار، وهى منزلة يستحقها بالفعل لكفاءته المهنية. ونظرًا لشغله منصب مدير لشركة الهند، انخرط فى حرب الأفيون ضد الصين منذ عام ١٨٤٦م، وفى قمع ثورة المحاربين الهنود Cipayes عام ١٨٥٨م.

وكان مالتوس (١٧٤٦-١٨٣٤م) يعمل مدرسًا لمادة التاريخ والاقتصاد السياسى فى المدرسة التابعة لشركة الهند، عندما كتب مؤلفه «دراسات عن السكان» أطلق عليها قانون السكان، وذكر فيها أن النمو السكانى يتم وفق تطور أسى فى حين أن الإنتاج المعيشى ينمو وفق تطور حسابى .

ولم يتم إثبات هذا القانون البتة.

وهكذا أصبح مالتوس - منظر شركة الهند ومبدأ التحررية الإنجليزية الذى أعفى من قانونه الجرائم الاستعمارية- هو السلف الشرعى لأولئك الذين ربطوا بين الزيادة السكانية والبطالة، والحريصين اليوم على تبرئة المسئول الحقيقى عن جريمة الجوع.

والقوانين التى اكتشفها مالتوس ليست قوانين ثابتة، ولكنها تنطبق على الرأسمالية والاستعمار والتحرر الاقتصادى، أى التنافس الشرس ومبدأ «تنافس الجميع وعلى كل شيء»، دون أية حدود قانونية أو أخلاقية، وهو تنافس يقضى على مليارات الحيوانات والنباتات وملايين البؤساء وآلاف المشروعات الصغيرة.

ولقد استلهم داروين نظرية الاختيار الطبيعى من مالتوس. فقد لاح له حل مشكلته بعد أن قرأ فى أكتوبر ١٨٣٦م مؤلف مالتوس بعنوان «رسالة فى مبادئ السكان - «Essay on the Principle of Population».

إذ قام باستنتاج كل الآثار السياسية والعنصرية لمنهج مالتوس، وكتب لـ«جراهام- W. Graham» فى الثالث من يوليو ١٨٨١م قائلاً: **«إن الأجناس الدنيا ستقضى عليها قريبًا الأجناس التى حققت مستوى أعلى من الحضارة»**، وظل هذا الرأى العنصرى - وهو أساس كل نظام استعمارى - سائدًا منذ ذلك الحين وحتى اليوم.

ب- من مسلمة ديكارت وحتى عصر الحاسب الآلى

تتعلق المسلمة الثانية التى تقوم عليها الحضارة الغربية منذ النهضة بعلاقات الإنسان بالطبيعة، وهو ما أطلق عليها «مسلمة ديكارت».

وقـد حـدد ديكارت هدفـه من خلال مـؤلفـه «Discours de la méthode» (١٦٣٧م) فى الصيغة التالية «سوف نصبح أسياد وملاك الوجود».

وديكارت كان معاصـراً لهوبس وتبادل معه رسائل جـدلية. إذ كان يعارض مذهبه التجريبى، ولكنه انطلق من نفس المفهوم المتعالى والأنانى عندما شرع فى تصور علاقات جديدة للإنسـان مع الوجود، دون التخلى عن مبدأ ثنوية الكون أساس الفلسفة الإنسانية.

وكى يكمل مسـيرته، كان من الضـرورى أن يمعن التفكيـر فى اليقين الأول الذى انبثق منه مـذهبه بالكامل: «هل أشك فى كل شىء، إنه أمر مـؤكد: أنا أفكر إذن أنا موجود».

«أنا أفكر إذن أنا موجود» قد يكون من الصعب قول مثل تلك الحماقات فى قليل من الكلمات، فخمس كلمات تخفى أربع مسلمات.

حتى روبنسون وهو الرجل الضائع المنعزل فى جزيرة، لم يكن ليرواده ذلك الوهم الساذج فى كلمة «أنا».

لم تكن كلمة «أنا» فى البـداية هى «الأنا». على العكس من ذلك فإن «أنا» تميزنى شيئًا فشيئًا وبصعوبة عن الشمولية الغامضة للجماد والأحياء.

إنها انتصار لصـدر طفولتى: اللحظة التى أثبت فيها كيانى كفـرد يتميز عن الآخرين وينفصل عنهم إن لم يكن يواجههم.

كنت أعرف أن كلمة «أنا» هى ماهية يكمن جوهرها أو طبيعتها فى التفكير.

وينبثق هذا المرض من الزمن البعيد من عـهد سقراط وأفلاطون. فكل ما لا نستطيع ترجمته إلى مـفاهيم لا أساس له فى الوجود. ولقد بلغ ديكارت ذروة الأسى عندما تسـاءل عن مكانة الحب والإبداع الجمـالى والعمل نفسه (ولكن العمل اللاآلى). فلنحـاول إذن استخلاص فكرة جمـالية من أفكار ديكارت!. ولنتعلم منه ما هو الحب!.

كيف خرج ديكارت من تأملاته الانعزالية؟

لقد اعتقد أولاً أنه لا بد من وجود جسد لهذه الروح المفكرة. فتفكيرنا الغريب ينمو فى هذا الجسد بالافتراضات اللاعقلانية. فالغدة الصنوبرية هى الجسر الذى يمكننا من عبور الهاوية بين الروح المفكرة والجسد. وهذه القطعة الصغيرة من اللحم هى المعبر غير المنتظر الذى يعود بنا مرة أخرى إلى العالم.

وحتى لا يتحول الوجود - الذى يبتعد بشدة عن هذا الفكر الانعزالى - إلى وهم، كان من الضرورى وجود برهان على وجوده الحقيقى. فى هذا الصدد يذكرنا ديكارت ببرهان أقل مفاجأة من الغدة الصنوبرية: فالإله هو الضامن الحقيقى لهذا العالم الخارجى. ولكن أى إله؟ بالتأكيد هو جوهر هذه الحقيقة الأكيدة حتى الآن عند ديكارت، أى التفكير. فهو فى غنى إذن عن هذه الغدة الصنوبرية كى ينتقل من مرحلة التفكير إلى الوجود. وقد كان مرجعه فى هذا الشأن منهج المدرسة التقليدية Solastique (نسبة إلى سكولا وهى المدارس الفلسفية الشهيرة فى العصور الوسطى حيث سادت فلسفة أرسطو فى التدريس) منذ عهد «القديس آنسلام- Saint Anselme» (١٠٣٣م-١١٠٩م) الذى استنتج وجود الإله من الفكرة التى نتصورها عنه، إذ إن لدينا فكرة عن ذاته الكاملة: «إن الإله هو هذا القدر الذى لا يمكن التفكير فى شىء أكبر منه، أو هذا الكمال المطلق الذى يستلزم خلق الوجود، فالذات الكاملة موجودة إذن». والحيوان ما هو إلا آلة (أى خالى من كل روح فى فلسفة ديكارت) والإنسان لم يفلت من هذه الحقيقة إلا بمعجزة ربانية، وذلك بفضل الغدة الصنوبرية التى تصل جسده بروحه. وإذا ما لجأنا إلى مزيد من ترابط الأفكار، يكفينا التجرد من هذه الصلة الغريبة حتى ننتقل فى القرن التالى من الحيوان الآلة عند ديكارت إلى الإنسان الآلة عند «لامترى Lamettrie».

ولقد جعلنا ديكارت أسياد وملاك الوجود نظراً لاعتقاده فى مفهومى الشمولية (الذى اكتشفه علم الهندسة التحليلية الذى اخترعه ديكارت)

والاستمرارية (وباعثه الأول هو وجود الآلة). وقد كان ديكارت فى هذا المجال رائد الحضارة التقنية التى تقصر وظيفة العقل على الوظيفة الآلية كوسيلة للسيطرة والثراء.

من هذا المنطلق، تم استبعاد أى معنى وأية غاية للوجود. ولقد اشتق ديكارت منطقه هذا من كلمتى السر: «الفكر الفريد» و«التسييس السليم». وعندما لجأ ديكارت إلى ستوكهولم، سألته الملكة: **كيف يستطيع الإنسان أن يضفى على حياته معنى وهدفًا؟** عجز عن الإجابة واكتفى - كما يقول «ليڤى شتراوس - Levi Strauss» - بترديد عدد أحرف كلمة رواقية (نسبة إلى الرواق الذى كان يجتمع فيه أتباع زينون، وهى فلسفة تقول بأن كل شىء فى الطبيعة إنما يقع بالعقل الكلى ويقبل أفعال القدر طوعًا) أو لفظ أبيقورية (مذهب الانغماس فى اللذات) حتى يتسنى له الإسناد إلى النظرية الأساسية للديكارتية التى تؤمن بالسيطرة التقنية على العالم، والتى دفعت «ميشيل سيير- Michel Serres» لتأليف «الحديث عن المنهج هو معاهدة لبدء الحرب»، وهو على أى حال كتاب موجز عن القوة التقنية، ولا يتناول حتى مسألة الأهداف. تلك الأهداف التى يفصح عنها الفارس المرتزق «René Descartes» عندما وضع نفسه (فى هذه الفترة من الحروب الدموية) تحت لواء كل من البروتستانتى «موريس دى نيسو- Maurice De Nassau» الذى كان يقاتل إسبانيا من أجل استقلال هولندا عام ١٦١٨م، والكاثوليكى «ماكسيميليان دى بيرر- Maximilien De Bairére» الذى كان يوآزر «هاسبورج- Hasbourg» للقضاء على استغلال المتمردين فى معركة الجبل الأبيض بالقرب من براج يوم ٨ نوڤمبر ١٦٢٠م لتبدأ مرحلة الظلمات لشعب بأكمله.

وقد خدمت عقلية المرتزقة والمغامرين الإسبان (الذين غزوا أمريكا) بطريقة مذهلة الحضارة التجارية والاستعمارية التى كانت آنذاك على وشك الازدهار. وأصبحت الفلسفة المماثلة لهذه العقلية - أى التى تقصر وظائف العقل على

الوظيفة الآلية - هى المعبود المبجل لنظام اجتماعى مزدهر ومتقدم لثلاثة قرون متواصلة، وحتى منتصف القرن العشرين، بعد أن صاغ جاستون باشلاررد «Gaston Bachelard» مفهومًا جديدًا مغايرًا للمنهج العلمى الديكارتى، وذلك بعد اكتشاف فيزياء الكم (نسبة إلى نظرية الكم وهو أصغر مقدار من الطاقة يمكن أن يوجد مستقلاً)، وقانون النسبية.

وفلسفة التنوير فى القرن الثامن عشر -التى عرفت فى فرنسا أوج ازدهارها- ما هى إلا فلسفة ديكارتية بعد تنقيحها من نقاط ضعفها اللاهوتية والمتعلقة بنظرية الغدة الصنوبرية، فأدت بالتالى إلى ظهور المذهب الآلى المادى (مذهب فلسفى يعتبر المادة الواقع الوحيد، وينكر وجود الروح والعالم الآخر والله) المتمثل فى الطبيب «لامترى- Lamettrie» (١٧٩١م - ١٧٨١م) فى كتابه «الرجل الآلة» (١٧٤٨م) وهو النتيجة المنطقية للمفهوم الديكارتى عن الحيوان الآلة.

وعلى الرغم من معتقدها الديكارتى، فقد لعبت هذه المادية فى القرن الثامن عشر دورًا تاريخيًا إيجابيًا. فقد كانت هى الأساس الأيديولوچى لمكافحة الإقطاع، التى أقرها مذهب يقوم على تبرير الحق المقدس للملوك والامتيازات العرقية. بل إن «بوسييه- Bossuet» نفسه أيد فى القرن السابق الملكية المطلقة انطلاقًا من منهج مستوحى من الكتاب المقدس.

وهذا الدور الثورى للمادية الفرنسية لم يكن هو وحده المعبر عن أشكال المادية. فقد قامت المادية الإنجليزية لـ «هوبس» هى الأخرى بتبرير الملكية المطلقة فى مؤلفه «Leviathan» فى حين أعلن كارل ماركس أنه وريث مذهب المثالية الألمانية (مذهب فلسفى ينكر المادة ويسلب الحقيقة عن كل ما لم يكن تصورًا ذهنيًا أو فكريًا ويطلق عليه أحيانًا اسم اللامادية).

وهكذا نستطيع تفسير منطق ماركس تفسيرًا سليمًا، وهو الذى كان يعتبر نفسه «أحد المعارضين لمنهج هيجل» عندما صرح أنه قلب رأسًا على عقب

منهج هيجل الجدلى (وهو المبدأ الذى يبرز تماسك المتناقضات ووحدتها). وهذا الموقف المتغير لا يعنى تأييد ماركس للمادة العقائدية السابقة، ولكنه يعنى الانتقال من فلسفة الوجود إلى فلسفة العقل.

ولقد أظهرت الثورة الفرنسية انقسامًا فى تاريخ الفلسفة كما أظهرت انقسامًا فى التاريخ السياسى لأوروبا.

وفى هذه المرحلة الحاسمة من التغيير، ظهرت أعمال «كوندورسيه- Condorcet» (١٧٤٣م -١٧٩٤م) وهو أول من صاغ بطريقة منهجية أسطورة التقدم بنفس الطريقة التى ألحت على العقول منذ قرنين من الزمان، على الرغم من إنكار التاريخ الواقعى لها، وهى الأسطورة التى تلت أسطورة العناية الإلهية التى سادت حتى القرن السادس عشر. وتكررت واستمرت هذه الأسطورة وأخذت أشكالاً متنوعة فى القرن التاسع عشر مع أوجست كونت «وقانونه حول الحالات الثلاث»، وفى القرن العشرين مع مفاهيم النمو أو التنمية الكمية التى يتم حسابها وفقًا لإجمالى الناتج القومى.

وقد كان كوندورسيه عالم رياضيات، وكان يتمتع بعقلية موسوعية، أى شاملة، ثم أصبح سكرتيرًا دائمًا لأكاديمية العلوم عام ١٧٧٣م.

وكان أداء الثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر قد أقنعه أن تطور التقنيات والعلوم هو تطور لا نهائى، وأن هذه السيطرة اللانهائية للإنسان على الكون يمكن أن تحقق رفاهية الجميع عن طريق النماء اللامحدود للثروات.

ولم يكن كوندورسيه يشارك آدم سميث فى تفاؤله المطمئن، الذى قنع بفكرة زيادة ثروة الشعوب دون الاكتراث بتوزيعها. ففى البيان المالى الذى عرضه يوم ١٢مارس ١٧٩٢م على المجلس التشريعى الذى كان يرأسه قال: «**إن كل مجتمع، كبير وغنى، يضم عددًا كبيرًا من الفقراء هو مجتمع بائس وفاسد**». غير أن هذه الأزمة المتعلقة بتطوير النظام لم تكن - من وجهة نظره - سوى مرحلة

مؤقتة، ولكى نعـالج هذا الخلل «علينا إقامة مؤسسات تسـاعد وتعين الشريحة الفقيرة من السكان».

وفى مؤلفه عن التصور التاريخى لتقدم العقل البشرى -Tableau hisorique des progorés de l'esprit humain، الذى نشـره عـام ١٧٩٤م - وهو نفس العام الذى انتحر فيه - أثبت أن التطور اللامحدود للاختراعات العلمية والتقنية المرتبط بالثقافة الشاملة، قد يؤدى إلى تقدم لا نهائى فى تحقيق السعادة البشرية.

ويتـصف هذا المنهج بالسخـاء، إذ يكفل السعـادة للجمـيع، إلا أن الأفكار الرأسمالية الفاسدة أنكرته؛ لأنها تهدف إلى تحقيق المزيد من الثروات والمزيد من البؤساء والمنبوذين.

والاعتراض الثانى - وهو أكثر حيوية فيما يتعلق بأسطورة التقدم - ينبثق من اختيار معـايير السعادة نفسها. والأمر يتعلق هنا بمعنى ومـغزى الحياة. وسوف نتناول هذه المعـايير عن طريق دراسـة المسلمات الثـلاث (المقدسـة) للحـضارة الغربية بدءًا من «فاوست- Faust» وحتى عالم اللامـعنى. وسوف نكتفى الآن بعرض المنهج الديكارتى القائل بأننا أسياد وملاك الوجود.

ولقد مكنتنا العلوم والتقـنيات الحديثة التى تدمر هذا الوجود من تفـسير هذا المنهج. فقنبلة هيروشيمـا أبادت فى لحظة واحدة ٨٠٠٠٠ نسمة، وهو ما يعد «تقدمًا تقنيًا» لا جـدال عليه، يفوق جنكيز خان الذى شيـد هرمًا يبلغ ارتفاعه ١٠٠٠ جمجمة فى سبعة أيام عندما استولى على أصفهان.

وتمتلك القوى النووية فى العصر الحالى مـخزونًا يوازى أكثر من مليون قنبلة مماثلة لقنبلة هيروشـيما، أى قدرة تقنية تكفـى لتدمير ٧٠ مليار نسـمة، أى ما يوازى اثنتى أو خمس عشرة مرة تعـداد سكان الأرض، فهى بالتالى قادرة على محو كل أثر للحياة على وجه الأرض.

وهذا هو مثال واحد فـقط. فالانتحار الكوكبى البطىء بدا أكـيدًا. إن تدمير طبقة الأوزون الناجم عن التلوث الصناعى يهددنا - خلال الثلاثين عامًا القادمة - بارتفـاع درجات حـرارة الغلاف الجـوى عدة درجـات، وبذوبان الثلوج فى القطبين، مما يؤدى إلى إغراق المدن الكبرى السـاحلية، حتى لو تمكنا من وضع حد لجنون استغلال المناطق القطبية الذى يسرع برفع درجات الحرارة وتدمير هذا المنظم الثلجى.

ولا يقف الدور المدمر للسـوق عند هذا الحد. فاعتـبارات الاقتصـاد الرشيد وحدها، والمردودية قصيرة الأجل، دفعت سوق البناء والشييد إلى التعدى على المسـاحات الفـضاء فى المدن والضـواحى نتيـجـة للنمو السـرطانى للعقـارات العشوائية، كذلك الحرائق المندلعة التى تحول المساحات الخضراء إلى أراضٍ للبناء أو (تحولهـا لمشروعات أكـثر ربحية) تـطغى سنويًا على مساحـات الغابات فى النمسا.

وفى المنطقة الاستوائية - الأمازون على سبيل المثال - أدى جشع المستوطنين الناجم عن تربية المواشى إلى تدمـير ٢٤ هكتاراً يومـيًا فى المنطقـة، مما يعرض الجهار الـتنفسى لخمسـة مليار نسمة للخطر. كـما يؤدى التصحـر - فى خلال الثلاثين عامًا القادمة - إلى هجرة أكثر من مليار نسمة.

تلك هى بعض الأمـثلة عن التقدم الذى تحـقق بعد السـيطرة على الطبيـعة وامتلاكها.

جـ- من مسلمة فاوست إلى عالم اللامعنى

بالإضافة إلى فاوست الأولى، قام تاريخ الغرب على مسلمة «مارلو- Mar-lowe» التى يقول فيـها «تحول أيها الإنسان بفـضل عقلك القوى إلى إله». هذا فى الوقت الذى اعتقد فيه عمالقـة الفكر مثل جوته وكانط وفيخت وهيجل أن الإنسان يستطيع أن يتولى تسيير العالم بدلاً من الله.

أ- آخر فرسان الفكر: فيخت وهيجل

قارن «فيخت – Fichte» الثورة الكوبرنيسية لكانط، التى يقوم عليها عمليًا ونظريا الاستقلال السيادى للإنسان بالثورة الفرنسية، التى ابتكرت قانونًا وعالمًا جديدين انطلاقًا من مبدأ الاسقلال السيادى للإنسان ومن عقله.

ولقد عرض خدماته على فرنسا عندما اقترح عليها فلسفته كأساس نظرى للثورة. «إن منهجى هو أول منهج للحرية. وكما حررت هذه الأمة (فرنسا) البشرية من قيودها المادية، فإن منهجى سوف يحررها من عبودية الواقع المطلق ومن المؤثرات الخارجية؛ لأن مبادئه الأساسية تجعل من الإنسان كائنًا مستقلاً. لقد نشأ «المذهب العلمى» فى الأعوام التى دأبت فيها الأمة الفرنسية – بقوة الإرادة – على الانتصار للحرية السياسية. ولقد اعتنقت منهجى هذا بعد معركة وثيقة مع ذاتى وضد كل الأحكام المسبقة المترسخة فى نفسى. ولقد أدى هذا الانتصار للحرية إلى نشأة «المذهب العلمى»، إننى أدين لبسالة الثورة الفرنسية بالنجاح الذى حققته، أدين لها لشحنى بالطاقة اللازمة لتفهم هذه الأفكار. فعندما كنت أكتب مؤلفًا عن الثورة، كانت تنمو فى داخلى الدلائل الأولى والمشاعر الأساسية لمنهجى، كما لو أنها كانت نوعًا من المكافأة لى على عملى. فهذا المنهج يدين إذن بدرجة أو بأخرى إلى الثورة الفرنسية».

وتاريخيًا، يمكننا القول بأن فلسفة فيخت كانت هى مصدر الفلسفة الحديثة «للفعل» التى قال عنها ماركس «إنها النظرية الألمانية للثورة الفرنسية».

ولقد استمد ماركس فلسفته عن الفعل فى بادئ الأمر من تلك الفلسفة، وأضفى عليها الصيغة الشهيرة فى فرضيته الحادية عشر عن «فورباخ – Feuer-bach»، الصادرة عام ١٨٤٤م، والقائلة بأن «كل ما قام به الفلاسفة حتى الآن هو تفسير العالم، وعلينا الآن تغيير هذا العالم».

ترتكز الفكرة الأساسية لمذهب فيخت على الإنسان المبدع والإنسان الذى تنم

أفعـاله عن أحواله. وكانت هذه هى المرة الأولى التى تتـعارض جذريًا فلسـفة «الفعل» مع فلسفة «الوجود». فالوجود بالنسبة له هو العمل وهو الإبداع.

ولأن طبيعة الوجود هى العمل والإبداع، فهناك دائمًا ماضٍ وحاضر جديد.

وتخـتلف «الأنا» التى انطلق منهـا فـيـخت أو تلك التى انتـهى عندها عن «الأنا» فى مذهب الفردية الأنانى؛ لأنها ليست إحدى المعطيات ولكنها فعل من الأفعال، أى أنها تمثل الفرد الذى يتصرف ويتمتع - فرضيًا - بملكة الإدراك.

و«الأنا» عند فيـخت - سواء فى بدايتهـا أو فى نهايتهـا - هى أبعد من أن تنعزل فى تفـردها الحساس وفى رضائهـا عن ذاتها، وإنما هى ضرورة لتحـقيق الشمـولية. فهى تصرف يهـدف إلى المشاركة فى صنع التـاريخ العالمى، وهذه «الأنا» تتعايش - فـرضيًا - مع الإنسانيـة جمعاء. وهى مضـمون شامل ليس فقط لثقـافتها الماضية، ولكن للحال الذى ستـصبح عليه فى عمـوم تاريخها. وهى - كما يقـول فيخت - «اندماج بين الأفكار الكاملة المطلقـة». إن ما يميز مفهوم «الأنا» عند فيخت هو تفوقـها الدائم على ذاتها. فهى لا تكتفى بتحديد حدودها ولكنهـا تتجاوز تلك الحدود كـما لو أن العالم الأبدى ينادى عليـها، ذلك أن حاضرها لا يتحدد إلا وفقًا لمسـتقبلها الوليد. «فالأنا» فى حالة تكوين دائم. أى أن حالى الماضى وحـالى الحاضر يتـحقق مغزاهـما التام وفقًـا لحالى المستـقبلى. فالوجـود إذن ليس هبة وعطاءً ولكنه فـعل وإبداع، وهو دائمًا فى طور الإعداد. ذلك هو المبدأ الأول لفلسفة «الفعل».

وعلى الرغم من إيمانه بمثالية كانط واستخدامه لمفرداته، إلا أن الفلسفة الحقة عند فيـخت هى الالتزام التام للإنـسان ببذل جـهد جماعى كـى يصنع التاريخ ويغير الوجود ويبنى المجتمع.

فالإنســان المنعزل - كـما يقول فـيخت - يرفض قدره ولا يكـترث بالتطور الأخلاقى. ولنتحدث من الناحية الأخلاقـية: إن التفكير المقتصر على الذات لا

يكترث بالـتفكير فى ذاته نفـسها؛ لأن الـغاية المطلقة للفـرد لا تكمن فى هذه الذات ولكن فى ذات الإنسانية جمعاء (Fichte.sittenlere. 17 .S18).

ويتطابق المســار الفلسفى لهيـجل مع مسار نظـيره فيـخت. فقد عــاصر هو الآخر انهيار عالــم ومولد عالم آخر بفشله السياسى. فقـد كان يبلغ من العمر تسعة عـشر عامًا عند سقوط البـاستيل فى الرابع والعشرين من شهــر ترميدور (الشهر الحادى عشر من السنة الجمهورية الفرنسية) الموافق التاسع والعشرين من شهر برومر (شهر الضباب أو الشهر الثانى فى تقويم الثورة الفرنسية). وقد كان على وشك الانتهـاء من مؤلفــه فينومنولوچيا العــقل، عندما عــسكرت القوات الفرنسية الغازية عام ١٨٠٧م فى منطقة «أيينا - Iéna» أمام منزله وعندما أقرت معاهدة سلام «تيلست- Tilsit» سقوط بلده بروسيا.

واستغرق بعــد ذلك تأليف كتابه «علم المنطق - Sciende de la Logique» من عــام ١٨١٢ وحتى١٨١٦م وذلك فى الفـترة الـتى بدأت فيــها الانتـفاضــة القومية لبلاده ضد إمبراطورية ناپوليون وانهارت والترلو عام ١٨١٣م.

وفى عام ١٨٢١م وهو العام الذى صــدر فيه مؤلفــه «فلسفة الحق -Philoso Phie du Droit» ثم عقد مؤتمر التحالف المقدس فى «لايباخ- Lay Bach ».

وقد جاهر برأيــه عن الدروس المستفادة من «فلســفة التاريخ - Les leçons sur la Philosophie de l'Histoire» فى الفــترة من عــام ١٨٢٢م وحتــى عام ١٨٣١م وسط التغيرات التاريخية العظيمة التى حدثت آنذاك، وهى الحقبة التى أعلنت فيها اليونان عــام ١٨٢٢م استقلالها عن «إپيدور- Epidaure »، وسقط فيها عرش إسپانيا، وقضت أمريكا اللاتينية على الاستعمار الإسپانى، واندلعت ثورة «Decabristes» فى ســان بطرسبــورج عام١٨٢٥م. ولم يتم الوعى التــام بمؤلفات هيجل العظيمة إلا مع بزوغ دلائل انهيار هذا العالم. ففى هذه المرحلة فقط بدأت محاولات هيــجل لعقد مقارنة شاملة بين الشــمولية والفردية، وبين

اللوجوس اليونانى (الفصل بين الخالق والكون فى الأفلاطونية الحديثة) وحقبة الذاتية المسيحية.

ولقد كان ماركس على حق عندما قال إن هيجل كان يمثل نهاية حقبة الفلسفة أو على الأقل فلسفة الوجود.

وبعد هذا العرض الشامل والعظيم لـ«هيجل» لم يترك كل من ادّعى بعد ذلك الاستمرار فى هذا المشوار أى أثر فى التاريخ الفلسفى. ذلك أن كلاً منهم تناول حقبة فلسفية لا تمثل سوى جزء من منهج هيجل. ونستطيع أن نطلق عليهم الوصف الذى أطلقه «روى بلاس - Ruy Blas» على أتباع «شارل كنت- Charles Quint» عندما قال:

«إنهم مجموعة من الأقزام ترتدى صديريات وتحتمى بمعطفه الملكى».

عالم بلا بشر: أوجست كونت والفلسفة الوضعية(١)

صدق «أوجست كونت -August Conte» على نهاية عهد الفلسفة التى كانت تدعو إلى البحث عن مغزى وغايات التفكير والعمل عند الإنسان.

والأمر الذى يسمح لنا بتفهم الوحدة التى تتمتع بها مؤلفاته، هو اهتمامه الأساسى المنصب على أن الثورة الفرنسية وضعت حدًا للنظام الإقطاعى والثيوقراطية (حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين) وهو ما يعد - فى نظره - أمرًا تقدميًا. كما أنها أقامت نظامًا جديدًا يرتكز على العلم والتقنية والصناعة ويضع نهاية للمرحلة السابقة من التاريخ. ولا يجب التشكيك فى هذا النظام بقيام ثورة جديدة كثورة عام ١٨٤٨م، وهو التاريخ الذى أطلق فيه أوجست كونت شعار النظام والتقدم.

ولقد مهدت الثورة الفرنسية لعهد «العقلية الصناعية» وهو قوام أى تقدم، أما مهمة النظام فتنحصر فى الحفاظ على هذا التقدم. وعندما تحدث أوجست

(١) فلسفة تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية، مهملة كل تفكير تجريدى فى الأسباب المطلقة.

كونت عن المحافظين لم يتردد فى ذكر قيصر روسيا وكبير الوزراء العثمانى كمثل للوقوف أمام كل تطور والإبقاء على النظام القائم.

ولقد نشر عام ١٨٢٢م مؤلفه «خطة الأعمال العلمية اللازمة لإعادة تنظيم المجتمع - Plan des travausc scientfiques nécessaires pour réorganiser la société» الذى تشتمل مبادئه على منهجه المستقبلى الذى عرضه فى ثلاثة مؤلفات رئيسية.

ولقد تحورت كتبه الثلاثة بالتوالى «مسار الفلسفة الوضعية» (١٩٣٠م-١٩٤٨م) و«النظام السياسى الوضعى» (١٨٥١م- ١٨٥٤م) و«العقيدة المسيحية الوضعية» (١٨٥٢م) على العلم والسياسة والدين الجديد القائم على المحورين الأولين.

أما العلم فهو علم عصره، أى الآلى والحتمى (وهو مبدأ يقول بأن أفعال المرء والمتغيرات الاجتماعية هما نتيجة عوامل لا سلطة للمرء عليها)، العلم الذى عرّفه «لاپلاس- Laplace» (١٧٩٩- ١٨٢٧م) أحد مؤسسى مدرسة البوليتكنيك (التى جسد أوجست كونت فكرها لفترة طويلة) فى كتابه «عرض للنظام العالمى - L´exposition du systeme du monde» (١٧٩٦م) الذى أعاد طباعته عام ١٨٢٤م. وهو المؤلف الذى يضم تحليلاً شاملاً لمجمل المعارف الفيزيائية التى يطغى عليها التعريف القوى للحتمية الآلية والقائل «بضرورة تبصر الوضع الحالى للكون على أنه نتيجة طبيعية للوضع السابق، وعلى أنه الدافع لتحقيق الوضع المستقبلى». وهو الفكر الذى تعرف - فى فترة من الفترات - على كل القوى التى تحرك الوجود والكائنات التى تعيش فيه. غير أن هذا التعريف كان شاملاً كى يتمكن من إخضاع هذه المعطيات للتحليل، إذ يجمع فى صيغة واحدة بين حركات أكبر أجسام الكون وأصغر جزئياته. وهو لا يقبل الشك أما المستقبل فهو كالماضى موجود ونصب عينيه.

وهكذا فقد صاغ أوجست كونت قانونًا شاملاً، وذلك باستبعاد كل عنصر

فى الطبيعة قابل للزوال. كما قام بتطبيق نفس هذا المنهج، أى الحتمية الآلية - على الإنسان والعلوم المتعلقة به مثل الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع (الذى أطلق عليه أيضًا علم الطبيعة الاجتماعية) -بعد أن استعبد - من حيث المبدأ - كل مسألة تتعلق بالإدراك.

ولهذا فقد قام فى مؤلفه حول «قانون الحالات الثلاث» باستبعاد الحالة اللاهوتية؛ لأنها تثير الاستفهام «بلماذا» ولا تكتفى «بكيف». وامتد هذا العهد اللاهوتى - وفقًا له - من بدء الخليقة وحتى القرن الثانى عشر، متجاهلاً تمامًا كل أنواع الحكم غير الغربية.

والعصر الميتافيزيقى يعتبر مرحلة انتقالية وانعكاسًا للرؤية اللاهوتية. والعصر الوضعى هو العصر الذى اكتفى فيه الإنسان بملاحظة ما هو كائن ووضع القوانين الخاصة به: «فقد تم استبدال مفهوم الأخذ بالأسباب بحتمية القوانين».

لا مكان إذن - فى هذه الفلسفة التاريخية - إلا للتعميم النوعى للحاضر كى يتم التنبؤ بالمستقبل. وهكذا أصبح أوجست كونت رائد هذا العلم الشمولى المتعلق بالمستقبل التقنى (يهتم بالنشاط الاقتصادى من غير أن يولى العوامل الإنسانية أهمية كافية) والعلم الآلى الذى يعتقد أن الحاسب الآلى يستطيع أن يجيب على كل التساؤلات، ليس فقط المتعلقة بالوسائل ولكن بالغايات، وذلك منذ اعتبر «نوربر وينر- Norbert Wiener» مخترع علم التوجيه (علم يتيح لإنسان أو آلة أتوماتيكية أن يوجها، وأن يبلغا هدفًا معينًا) أن المجتمعات البشرية معقدة جدًا كى يسيرها الإنسان، ولهذا وجب الاستعانة بالآلة كى تنجز بدلاً منه ما كان عليه إنجازه، مع استبعاد أى قرار يمكن أن يتخذه: إن محاولة تغيير مجرى التاريخ قد تصبح أمرًا مخالفًا للصواب.

ويقصره المعرفة على المسلمة، قصر أوجست كونت العمل على النظام القائم، فى حين أن الأمر يتعلق على العكس من ذلك بمحاولة ضبطه.

وهذا المبدأ هو أساس المنهج المحافظ (نزوع إلى إبقاء ما هو قائم ومقاومة التجديد) كما لاحظه جيدًا «شارل مورا- Charles Maurras» لا سيما أن هذا الإدراك العقائدى سوف يقصره أوجست كونت على الدين.

ففى مؤلفه عن العقيدة المسيحية الوضعية، اختلق نوعًا من الكاثوليكية بغير إله، وذلك بإدراجه نظام التدرج الدينى وطقوس وعقائد الكنيسة الكاثوليكية فى عهده إلى كنيسته التى تؤمن بالوضعية.

وهكذا استطاع أوجست كونت أن يحتفل فى آن واحد بقمة النجاح الذى حققته فلسفة الوجود وبنهايتها.

***

وهكذا بدأت عملية نهب ٩٠٪ من الثروات المادية فى العالم التى انتهجها أولئك الذين يعيشون من أجل الثراء والقوة.

وهذا هو ما نطلق عليه فى الغرب مصطلح «العصور الحديثة»، والمؤرخون مكلفون بنقل أيديولوچيته إلى الأطفال، ووسائل الإعلام مكلفة بنقلها إلى البالغين.

فهرس الموضوعات

رقم الإيداع: ٢٨٢٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N. 977- 09-1054-6

مطـابع فـاين لايـن

ص.ب ٧٨ المعـــادى

تليفـون : ٧٠٠٧٠٨٢ فـاكس : ٧٠٠٨٣٥٣

هذا الكتاب

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، بدأ الغرب.. (الولايات المتحدة وبريطانيا وحلف الأطلنطي).. وإسرائيل والصهيونية العالمية حملة تشهير عالمية متعددة المستويات والمجالات والأساليب ضد الإسلام والمسلمين باعتبارهم العدو الجديد للحضارة الغربية...

بالطبع كنا ـ شعوبًا وحكامًا ـ فى غفلة تامة عن ذلك...

واليوم بلغت الحملة مبلغها عسكريًا وسياسيًا وثقافيًا.. وكل ما نفعله الآن محاولات متقطعة لنفي الإرهاب عن الإسلام.. مع استغلال بعض حكومات الشرق الأوسط تلك الحملة العالمية لزيادة القمع والبطش ضد المعارضة بزعم محاربة الإرهاب.

و/أو مساندة الحملة الغربية على الإرهاب.. مع أن التعريف الأمريكى للإرهاب ـ كما بيّن تشومسكى نصه عدة مرات فى عدة كتب مثل: "أوهام الشرق الأوسط" ـ " السيطرة على الإعلام" ـ "9/11" ـ ... ينطبق تمام الانطباق على كل من السياسة الخارجية الأمريكية والإسرائيلية، ولكن لا نجرؤ حتى على التفوه بذلك.

فى هذا الكتاب يستعرض جارودى ـ وهو فى العقد العاشر من عمره، ويعيش فى باريس ـ تاريخ الإرهاب الغربى...

ويستخرج الأسس التى عليها قام الإرهاب: إنكار الآخر واستعباده، واستئصاله إذا لزم الأمر.





الغلاف: محمد الشوع